الثقافة

فكرية جامعة تصدر في دمشق

صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

الادارة والتحرير :

دمشق - شارع الأرجنتين

هاتف ٢٢٩٩٨٤

ص.ب ٢٥٧٠

REVUE "AL - SAKAFA"

PROPRIETAIRE — DIRECTEUR EN CHEF

MIDHAT AKKACHE

DAMAS (R. A. S.)

B. P. 2570 — Tel. 229984

تشرين الثاني ١٩٨٠



هذه المجلة ..

لا تزال مجلة « الثقافة » باصداريها « الاسبوعي » و « الشهري » تفتح صدرها لاقلام الادباء على امتداد الوطن العربي كله .. وللاقلام الشابة الواعدة ، مركزة جهودها على كشف المواهب الجديدة وبخاصة في هذا البلد المعطاء .. القطر العربي السوري ..

تلك هي رسالة المجلة منذ صدورها ، تعمل جاهدة في هذا المضمار لا تثنيها عقبة ولا يعوقها في تأدية رسالتها عائق . تتخطى الصعاب معتمدة في جهادها على أنصارها من الاخوة الادباء الذين راحوا يعتبرونها معلمة من معالم هذا البلد بعد أن مضى على تأسيسها قرابة ربع قرن ..

واننا حيال هذه المؤازرة الكريمة من مسؤولين وغير مسؤولين في البلاد العربية كلها .. تلك المؤازرة التي نعتز بها لا يسعنا الا ان نرفع أسمى آيات الشكر لهؤلاء المناصرين متخذين على أنفسنا عهدا للعمل الجاد لتأخذ المجلة مكانها اللائق بين مجلات العالم العربي ، ولتكون مشعلا يحمل الصورة الصحيحة للادب العربي والنتاج الفكري في سائر الاقطار العربية ..

رئيس التحرير

في ربوع المرهفين
تميم بن المعز لدين الله

بقلم : عارف تامر

الشاعر الذي جعلناه موضوعا ، وعنوانا لحديثنا في هذه الصفحات ، يكاد يكون مجهولا في دولة الادب ، ومغمورا في مملكة البيان انه شاعر اثخنته جراح النكران والنسيان ، وعبقري شاء المؤرخون والباحثون اطفاء شخصيته الادبية ، واسدال الستار على شعره وانتاجه ، عن قصد ، أو غير قصد ... لا أحد يدري ؟

وانه لمن المؤسف ... ان كتب الادب على اختلاف مناهجها ، وتنوع أساليبها واتجاهاتها لم تخصص له الا سطورا قليلة ، ولولا ديوانه الذي نشر سنة ١٩٥٧ في دار الكتب المصرية بعناية لجنة من الادباء - لظل هذا الشاعر يرقد في كهوف النسيان كغيره من الشعراء المرهفين ، والعباقرة الملهمين الذين طواهم الدهر في صفحاته .

ذكره الثعالبي في اليتيمة ، والباخرزي في الدمية، وابن خلكان في الوفيات، والسيوطي في حسن المحاضرة. أما ابن الفضل العمري فجاء على ذكره في مسالك الابصار بقوله :

« تشبه تميم بابن عمه ابن المعتز ، وتشبث بذيله »، وقال ابن الابار :

شاعر أهل بيت العبيديين - [ويقصد بيت « عبيد الله المهدي »] مؤسس الدولة الفاطمية في - المغرب - غير منازع ولا مدافع وكان فيهم كابن المعتز في بني العباس ... غزارة علم ، ومعاناة ادب ، وحسن تشبيه، وابداع تخييل، وكان يقتفي آثاره ، ويصوغ على مناحيه في شعره . وقال الحصري في زهر الآداب :

كان يحتذي مثال ابن المعتز ، ويقف في التشبيهات بجانبه ، ويفرغ فيه على قالبه .

هو تميم بن المعز لدين الله الفاطمي . ولد سنة ٣٣٧ في مدينة المهدية بتونس ، ان نقرأ في المصادر التاريخية الفاطمية ان أباه المعز لدين الله كني « بأبي تميم » ولما يولد بعد ، ومعنى هذا أنه الابن الاكبر . أما كيف نشأ ، ودرس ، وكيف قضى أيام شبابه في المغرب ، فهذا غير واضح ، وكل ما عرف عنه ، أنه قدم الى مصر عندما تم فتحها من قبل القائد جوهر الصقلي ، وكان في سن الخامسة والعشرين فسكن القصر الكبير في القاهرة . ويظهر أن الخليفة المعز لدين الله كان شديد الحرص على ألا يعهد اليه بأي عمل من الاعمال الادارية او السياسية ، ولا ندري سبب ذلك ؟ فعندما هاجم القرامطة مصر ٣٦٣ هـ بقصد انتزاعها من الفاطميين ، عهد المعز لدين الله الى ولده الثاني الامير عبد الله بقيادة الجيش المدافع .

عاش تميم في مصر حياة لهو وترف ونعيم في بيت الملك ، وفي ربى النعيم والجاه ، وشاهد الوان الحياة في القاهرة المعزية التي كانت تموج بروائع الحياة ومباهجها ، فمن قيان وندامى ومغنين ، الى مجالس

راح وجواري عديدة مختلفة الاجناس تغلب عليهم شارة الظرف والجمال ، فاضطرمت فيه عواطف الشباب المتأججة ، واستيقظت كوامن نفسه الراقدة ، فشرب الراح في ليالي الصفاء ، وتذوق الالحان ، وفاء الى مجالس الانس بين الندامى والسمار حيث الحب ولذاته ولهوه ومجونه .

أجل ... عاش تميم في مصر حياة اللهو والترف ، ووجد في البيئة المصرية من المتنزهات والديارات والاسباب ما وافق هواه ومزاجه ، فأكثر من الخروج الى المختار بجزيرة الروضة ، والى دير القصير ، ودير مرحنا وشارك المصريين في لهوهم وطربهم ، وأكثر من الشرب والعبث والبذخ والتأنق في كل شيء . فكان يركب على عشارى في الليل ، ويتبعه أربعة زوارق مملوءة بالفاكهة والطعام والشراب ، فاذا كانت الليالي مقمرة والا كان معه من الشموع ما يجعل الليل نهارا ، واذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم لحنا أمر باعادتهم وسألهم عما عز عليهم فيأمر لهم به ، ثم ينتقل الى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله ، ثم ينصرف الى قصوره وبساتينه ، فلايزال على هذا الحال حتى تنقضي أيام الاعياد ، ويتفرق الناس .

وكان تميم كريما يسرف في الكرم الى حد السفه ، مقبلا على الشراب ، محبا للسماع ، مشاركا أصحاب اللذة واللهو والقصف ، وقد اتخذ لنفسه عددا من الاصدقاء ومن بينهم « بني الرسي » وهؤلاء هم أسرة من العلويين الحسينيين الذين أقاموا الدولة الزيدية في اليمن ، ولا ندري كيف جاءوا وسكنوا مصر ،وكان جد الاسرة أبو القاسم نقيب الطالبين في الديار المصرية، وأحد الذين حضروا عهد الاخشيد ، وكان شاعرا مجيدا، أما ولده القاسم وابراهيم فكانا من الشعراء ، واصغرهم ابراهيم اعتبر من أصدقاء تميم الذين راسلوه ، وحضروا معه ليالي الانس والصفاء .

مما لا ريب فيه ان شاعرنا تميم قال الشعر منذ الصغر ... فهو شاعر مطبوع رافق الشعر في سن مبكرة عندما كان في تونس ... وجو تونس مليء بالندى والظلال والجمال ، فهو لا يقل عن جو الاندلس ولهذا نرى في شعر تميم البيان الاندلسي الساحر الذي صقلته خيالات قرطبة واشبيلية حيث الطبيعة تنقش فيه ابدع صورها وألوانها ، ولكن مع كل اسف ضاع هذا الشعر كما ضاع غيره من الآثار الادبية الفاطمية ، وكل ما بقي لنا من شعره الروائع التي نظمها في مصر والتي يغلب عليها الصنعة المصرية والذوق الاندلسي المصبوغ بالديباجة الجذابة والموسيقى المعبرة ... انه عصر جميل عرف بترفه ولهوه وخمرياته ومجونه ، بالاضافة الى الحرية الفردية التي كانت سائدة فيه ، والى التطور والتجديد الآخذ بالنمو في بيئة تتقدم في طريق التحرر والانعتاق . فكان على شاعرنا وهو امام هذه المظاهر أن ينخرط في هذا المجال ليعب من المعين الثر المتدفق ، ويعطي الشباب الفض العنان لخوض معارك الحياة الجزلى وللتحليق في الاعالي ، وللتغريد على الاغصان . ومن الواضح أن تميم أحسن وابدع في وصف الراح والنديم والساقي ومجالس الانس وكؤوس الخمر وموائد المدام التي زخرت بالطيب والاريج ، وقد كان في أكثرها صادق الشعور والاحساس قوي الخيال رقيق العاطفة يقدم الصور الواضحة بأسلوب يغلب عليها اللون القصصي والحوار الشيق الى جانب التشبيهات الجذابة ، والديباجة الانيقة .

ولكن ... ومن حقنا أن نتساءل .. هل اوقف كل هذا تميم عن التفكير بالخلافة ، وهل حال بينه ، وبين شعوره العميق المشوب بالحزن ما تعرض اليه في بدء حياته من غمط للحقوق ، وانتزاع للحق المكتسب؟ هذا ما يتبادر الى الاذهان ، ومن جهة أخرى لاندري متى فكر خليفة مصر الفاطمي بنزع صفة ولاية العهد عن تميم ، ولماذا خرج عن التقليد الفاطمي الذي يقضي بتولية الابن الاكبر ؟ فهل كان هناك ضغط عائلي من الأسرة لابعاد تميم عن الخلافة لان أمه غير فاطمية ؟ ... كل هذا يثير موجة من التساؤل والاستغراب ؟ ونعود الى التاريخ لنقرر معه : بأن الاسباب لا تخرج عن كونها تظهر واضحة في صفحة حياة هذا الشاعر ، وخروجه على التقاليد ، وحرمة الخلافة في بلد محافظ ، وفي وسط يعتبر الفاطميين هم القدوة الناس وللمسلمين .

لقد عرفنا ان للمعز أربعة أولاد هم : تميم ، وعبد الله ، والعزيز ، وعقيل ، وقد اعتقد الناس في تونس بأن الخلافة صائرة الى تميم ، ولكن الخليفة الفاطمي صرفها عنه الى أخيه عبد الله ، وعندما مات عبد الله تولاها « العزيز بالله » الاخ الثالث ، أما عقيل فقد مات أيضا بعد عبد الله .

ومهما يكن من أمر ... فلو أن المصادر ساعدتنا

على معرفة الاسباب ، أو بعضها ، أو على الاقل لو أن الظروف خرجت عن تنكرها ، وأعطتنا المزيد من المعلومات عن تميم ونشأته وعهد شبابه اذن لجاءت دراستنا أعم وأشمل ... ولكن ما حيلتنا اذا كانت كتب الادب والتاريخ قد سدت الابواب والنوافذ ... فنحن لا نصدق أن تميم لم يقرض الشعر في المغرب ، ومن الواضح أن المدة التي عاشها هي خمسة وعشرون عاما ، وفي هذا العهد - عهد - الشباب تتفتح الاذهان ويطيب التغني بالحب والجمال خاصة في وطن يذخر بالجمال والمظاهر الطبيعية الجميلة ، ولكن يبدو أن الافق الذي نستنطقه الحياة متلبد بالغيوم .

الى كم تهدم الاحداث ركني
وترميني بجور واعتداء

يعاقبني الزمان بغير ذنب
وتخذلني يدي وذوو اصطفائي

حياتي بين واش أو حسود
وساع بي يسر بطول دائي

في الواقع انه لشعور حزين يتسرب الى النفس فيملأها رحمة وحسرة على شاعر اعتصر الحزن والالم قلبه ، وجعل الدمعة تترقرق من عينيه ، واللوعة تعتلج في صدره ... فهو من هؤلاء الشعراء الذين جاءوا الى الدنياورحلوا عنها تحوطهم العبقريةوتطالعهم المأساة ، ولعل مادة الابداع هي التي حركت كوامن نفسه الراقدة ، وفجرت ينابيع وجدانه الصاخبة ، وجللت قصائده بمسحة من الرقة والجمال المشوبة بالحزن .

أجل ... جاء تميم الى الدنيا على جناح صبا رقت ولانت ، فما هبت يوما الا هفافة ناعمة ، ولادخلت بستانا الا عذبة رفافة ... انها أعراف روح زكية أخرجها هفيفا لتحيي الخواطر ، وتمسح عن الجبين آلام الدنيا وأحزانها .

لقد رضي تميم بهذا الواقع يفيء الى ظلاله ، ويعب من معينه ، وهل لنا أن نلومه على هذا الاتجاه النابع من واقع الانسانية ، وهل للشباب الريان المتليء صحة وشبابا وشعرا وأدبا الا الانجراف وراء العاطفة والحب؟ وماذا على تميم أن يفعل لابعاد الهموم التي كرت عليه بجيوشها منذ أن كان صغيرا ، وهل هناك دواء لآلامه الا القصف والشراب والطرب ؟

لقد كان تميم يمثل اللطف والكمال ونقاوة القلب والضمير ... ودخل محراب الشعر فأخرج الخلجات وأثار الخفيات ، وارتاد الطبيعة فأرسل الصلوات الخاشعة ، والتراتيل العذبة التي تسبح العظمة والجمال والابداع ، وجلس على أريكة الشعر ، متخذا من قصره في القاهرة « المعزية » سوق عكاظ يلتقي في ارجائه الندمان ، ويتبارى على بساطه الشعراء ، وأهدى مصر روحه ووجدانه ، وتغنى باماكنها وحباها بكل ما وهبه الله من قدرة ونبوغ .

ومن يتسلل الى حرم ديوانه يرى أنه قد أعطى الطبيعة القسم الاكبر من اهتمامه ، ففناها أطيب ألحانه عندما تكون أكمام الرياح محملة بفتات المسك وعناقيد اللؤلؤ الابيض معلقة في أعناق النسرين ، وبراعم الورود الاحمر تعانق أوراق الاغصان ، أو عندما يكون حبيبه الى جواره ، والقمر شاهد على مناجاته ، وحينما تتجاوب الخمائل بأنغام الاعواد ، وصخب السقاة المخمورين ، وقبل العشاق والسمار .

ذكرني النسرين لما أتى
ريح حبيب لي أطال الصدود

كأنما قبلت من نشره
بيض الثنايا واحمرار الخدود

ما أجود النسرين لكنه
ذكرني هاجرا لن يعود

ويعب من الليل ما يشاء ، وكأنه راهب يجلس أمام شاطيء النيل الهاديء ساعة الدغشة المتلألئةيقطف منها الصور والالوان ، ليضعها على لوحاته الخالدة :

أما ترى حركات الريح مخبرة
ان الغمام يصوب الارض بالمطر

فالجو ملتحف بسطا مفوفة
كأنهن اختلاف الوشي والحبر

كأن برد نسيم الغيم حين بدا
برد ارتشاف حبيب زار في السحر

والنجوم أمامه ترمي شعاعاتها ورشرشاتها من الازرق حفنة ، ومن الاخضر حفنات عندما يكسو الضباب شاطيء النهر كالغلالة الشفافة ، وحينما يهب النسيم العليل ليداعب الورود النابتة على جوانب الماء ، هامسا في أذنها أغاني الحب والشوق والجمال .

اذا حان من شمس النهار غروب
تذكر مشتاق وجن غريب
واني لأهوى الريح من كل ما بدا
برياه من ريح الشمال هبوب
وما بلد الانسان الا الذي له
به سكن يشتاقه وحبيب

ويشرب ويحلق بروحه ، ويغني الروض والورد والنسيم والندى تاركا في آذان العشاق الانغام المضمخة بالعبير :

خليلي لا عيش سوى اللهو والصبا
ولا لهو الا في سماع وفي خمر
فحثا كؤوس الراح صرفا فانني
أرى الدهر صعبا لا يدوم على أمر
واعط من العيش الشباب نصيبه
ولا تنتظر كر البياض على الشعر

وأحب تميم الخمرة حتى العبادة ، فكانت تسمو بروحه حتى تصبح نجوة من الجسد ، ولم يقف حبه لها عند حد ،بل لقد أحب طعمها ولونها وعشق كأسها المتلألىء الشفاف ، ودنها الصاخب، فكان يجد السعادة كل السعادة في مجالس الشراب بين السامر والنديم ، تقدم له الكؤوس من يد ساقي اكحل العينين حلو الشمائل ، أو فتاة مياسة القد ناهدة الثديين .. وكان تميم زهرة هذه المجالس ، والامير المتربع على قمتها لما اختص من حلاوة لسان وسرعة خاطر وخفة روح ، ففي هذه المجالس ينسى هموم الحياة ، وشؤون الخلافة ، فيرتمي في أحضان الانس وشفتي الكأس مستهترا بالعادات ضاربا بالقيم معطيا لنفسه العيان مبتعدا عن الناس الا الفئة من أصحابه سكن اليهم وارتاحت نفسه الى مجالستهم في منزله ، أو في حديقته في ضوء القمر .. في ضواحي القاهرة ... على ضفاف النيل الوادع ... بين الحدائق الوارفة الظلال ، وفي كنف عالم الروح واليقين ، حتى اذا استيقظت في نفسه نوازعها أرسل شعره نغما صافيا حيا معبرا عن نفسه الحائرة الهائمة بين ملتف الغياض ، ويانع الرياض .

أتنسى أيها العاتب ... ظلما ليلة النهر
وكرات مجارينا ... من المختار للجسر
وقد قابلك البدر ... فأخمدت سنا البدر
ولاح الفجر في وجهك في الليل بلا فجر
وفي خديك مارق ... عن التشبيه بالخمر
وأضنتني ألحاظك حتى حتى رحت لا أدري
أسقم بين أجفانك ... أم كحل من السحر
وقد عاطيتني كأسك ممزوجا من الثغر
وبتنا من تدانينا ... على أضيق من فتر
مبيت الصائم الفرقان وافى ليلة الفطر
بلا بغي ولا اثم ... ولا فحش ولا نكر

اننا حين نقف أمام ديوان تميم نرى فيه ازيد من الوصف لحياته ومجونه وخمرياته ، وقد نشعر ونحن نرافقه بأننا أمام شاعر عرف الحب وهام بالجمال وسكر بخمرته . ولكن حب الاستطلاع يدفعنا أخيرا للتساؤل عما اذا كان تميم يحمل في قرارة نفسه الرضى عن هذه الحياة ؟ وهل كان في صراع مع قلبه وعقله ؟ ... من المفروض في تميم أن يعف ويتمسك بأهداب العقل والفضيلة ، فهو من بيت الخلافة ، بل هو ابن خليفة وأخ لخليفة ... ولكن العاطفة الجامحة الجياشة والشاعرية المتحررة التي لا تقف عند الحدود تأبى أن تحني رأسها أمام العادات والتقاليد .

أجل ... عندما نأخذ لدراسة شعر تميم من جميع نواحيه ، نجد أنه لم يقتصر على فن واحد من فنون الشعر ... ولكنه كان في بعضها مقلا ومقصرا ، وفي بعضها مكثرا ومبرزا ، وهذه الفنون كانت سائدة في دولة الشعر في عصره .

لقد وصف الصيدوالخيل والكلابوالبزاة ، وافرد للهجاء وللرثاء وللمديح وللعتاب والشكوى من الدهر بعض صفحات ديوانه ، وكل هذا تناولناه في دراستنا المطولة عنه . أما الطبيعة فقد استأثرت بأكبر قسط من حياته ، غناها الحانه الشجية ، وسكب فيها روحه ووجدانه ... افتتن بحسنها وجمالها ومظاهرها ... بل افتتن بالورود والرياحين والشمس والظل والشجر والماء .. وكل هذا دفعه دفعا الى الشراب والطرب ، واعتمد على الناحية الوجدانية وصاغ المعاني الجميلة، ورسم الصور السحرية التي جاءت لتعبر عن هواجسه وأحاسيسه ، وتنطق بالموسيقى العذبة التي تدخل الى الاعماق .

وعندما ننتقل الى الغزل في شعره ... هذا الغزل الذي كان ولما يزل من بواكير الفكر البشري ، ومن نتاج العقل المتطور المفطور على الابداع ، وخضوعه لنوعية الحب الذي يتضوع منه ... وهو أعمق فنون الادب وأوسعها انتشارا منذ أن وجدت المجتمعات البشرية ، ودخلت في عالم الوحي وأدركت ذاتها وتيقظ ذوقها... منذ ذلك الحين كان الغزل ، وكان السمو والتحليق في أجواء الانسانية الرحبة ، وآفاق البطولة الفسيحة .

واذا ما تدبرنا محصولات الفكر الادبية عند الامم المتحضرة ، ودرسنا مراحل تطورها وتقدمها في مجالات العصور ، الفينا الغزل أعظم هذه المحصولات وأكثرها أهمية وامعانا في القدم ، وقد بلغ هذا بعض الامم كقدماء اليونان والمصريين والفينيقيين ، وجميع هؤلاء اشركوا آلهتهم بنعم الحب ، وأجروا على ألسنتهم عشاقا ومعشوقات ، من ألوان الغزل وأفانين المناجاة ما يفيض بأنقى العواطف وأسماها ، وأعذب الخواطر وأشجاها .

أجل ... لقد هدهد الغزل الطبيعة منذ أبعد العهود التاريخية بأرق أغانيه ، وأروع معانيه وأشاع في أرجائهاحرارة الانفاس ، وأذاعفي أجوائهامن الاحساس ما أسبغ على الحياة قبس من روحها وحللا روحانية نورانية فضفاضة تنعم بسنائها العيون ، وتنبسط لرؤيتها النفوس ، فما يترك للاجيال تلو الاجيال فرصة للمرور في ركاب الزمن وهي نشوى بخمرة الجمال ، وعذوبة الالحان ، ومرابع الخيال،وهذا الغزل أوصل شاعرنا تميم الى حد التظلل بأشعته السحرية الندية الدافئة ، فدب في قلبه ومشى في وجدانه ، وتلألأ في وجهه .

لقد كانت حياته ونفسيته وآماله وقلبه وعواطفه تتآمر في سبيل ارهاق حياته الجبارة الابية ، فجاء شعره يعرض عواطفه ومشاعره وما يختلجفي صدره. وعلى العموم فقد عبر شعره عن حياته الخاصة وحياة الطبقة المترفة ، وأعطى صورة صادقة للفن والجمال ، ولم يكن للمال أو الجاه أو الاغراض الاخرى أي تأثير على شاعريته المترفة المرهفة ... كان فنانا يتذوق الحياة كما يتذوقها الفنان الملهم ، أو الشاعر المرهف الحس ، فيفهمها على أنها جمال وخير :

عاقب بما شئت من الهجر
وأغلق رضا قلبك عن غدري

أليس قد رحت على كل ذا
أجول في سرك والجهر

جدد ولو بالسوء ذكري فما
أحب أن تنفك عن ذكري

يامن اذا شبهته لم أجد
لوجهه شبها سوى البدر

ويعرج تميم على أماكن اللهو في ساعات مبكرة ليخلو بمن يحب ... وهذه الامنية المنشودة هي التي تخفف من آلامه وترضي نفسه :

كم بدير القصير لي من بكور
ورداح على الصبا والقعار

حيث اخلو بما احب من القصف
قليل الوقار لست اداري

كم صبوح شددته بغبوق
وظلام وصلة بنهار

انما العيش ان تروح عشيا
قاصفا عازفا خليع العذار

وما احلى الدخول الى واحة تميم الشعرية ، والاستماع اليه وهو يروي مغامرة من مغامراته في ليلة صفا وهذه القصيدة تطفح بالتشبيهات الرائعة وبالفن القصصي الذي كانجديدا في ذلكالعصر البعيد.

ولي صاحب لايمرض العقلجهله
ولا تتأذى النفس منه ولا القلب

اذا قلت لا في قصة لم يقل بلى
وانقلتاصبو قال:لابد اناصبو

وان قلت هاك الكأس قال مبادرا
الاهاتها طاب التنادم والشرب

غدوت به يوما الى بيت حانة
وللغيم دمع مايكف له سكب

فأفضى بنا الادلاج بعد مشقة
الى زولة شمطاء منزلها رحب

فقالت لنا اهلا وسهلا ومرحبا
وقل لكم مني البشاشة والرحب

من انتم؟ فقلنا عصبة من بني الصبا
دعاهم اليك القصف والعزف واللعب

فقالت على اسم الله حطوا رحالكم
فعندي الفتاة الرؤد والامرد الرطب

وراح نفى اقذاؤها طول عمرها
فجاءت كما يذري مدامعه الصب

كأن سراجا في ترائب دنها
اذا اقبلت من جانب الدن تنصب

فقلنا لها هاتي بها وتعجلي
ولايك فيما قلت خلف ولا كذب

فجاءت تجر الزق نحوي كأنه
على الارض زنجي بلا هامة يحبو

فلما مزجناها بدا فوق رأسها
حباب كما ينساب من سلكه الحب

وطافت بها هيفاء مخطوفة الحشا
معاطفها سلم والحاظها حرب

تمايل ردفاها وادرج خصرها
ليانا ولطفا مثلما تدرج الكتب

احلت لي الصهباء تقبيل ثغرها
وما كان قبل السكر في لثمه عتب

ومن روائعه وصفه لرحلة قام بها في النيل ... ويقول عنها : انها رحلة ممتعة شيقة ، وكل رحلة مثلها تكون قصيرة عادة ... وينتقل بعد ذلك الى وصف السفن التي كانت تمخر عباب النيل صاعدة هابطة فوق الامواج ... وكم هو جميل تشبيهه هذه السفن بالخيول في صعودها وهبوطها في الطرقات المتعرجة ، ثم يذهب الى ابعد من ذلك عندما يشبه الامواج بطيات اللحم التي تنمو على البطن من فرط السمنة ، اما داراته المدورة فكانها خطوط الكف او الجبهة ... ولم نقرأ او نسمع مثل هذا التشبه في الشعر العربي :

يوم لنا بالنيل مختصر
ولكل يوم مسرة قصد

والسفن تصعد كالخيول بنا
في موجه والماء ينحدر

فكأنما امواجه عكن
وكأنما داراته سرر

ويقول في وصف السفن :

بعثت بساكنات طائرات
تفوت اللخط وهي بلاجناح

تطير اذا المجاديف استحثت
بها طيران اجنحة الرياح

كأن سوادها في الماء يحكي
سواء الاعين النجل الملاح

ومن روائع تميم :

اذا خلوت بمحبوب تجمشه
فاملأ محاسن خديه من القبل

لاشيء احسن من كف تغمزها
كف ومن مقل ترنو الى مقل

ومن فم في فم عذب مقبلة
كان ريقته ضرب من العسل

حتى اذا نلت ماتهوى بلا تعب
فأجعل منامك فوق المتن والكفل

وقل لمن لام في لهو تسر به
اليك عني فاني عنك في شغل

هذا ما امكن عرضه عن الشاعر تميم بن المعز الفاطمي ، ولعل ما ذكرناه عنه يعطي صورة عن شاعر مغمور غنى الدنيا اجمل الالحان ، وترك بعده ارق الاغاريد ، واشجى الترانيم ، وكأني به رحل عن هذه الدنيا وهو يردد :

ولولا احتمال النفس كل مشقة
اذن لتساوى في العلا الحر والعبد
كذا السيف لاتستخبر العين عتقه
اذا لم تفارقه الخمائل والغمد
وليس لكل الناس يستحسن الغنى
كما ليس في كل الطلى يحسن العقد

* * *

« سلمية » : عارف تامر
دكتور في الآداب

ثورو المفكر العملاق مات متسولاً

بقلم الدكتور محمد جبر

على كل من لايجد الى طريق الفكر سبيلا سوى التقرير .. والتزوير .. وفن اللصوصية .. والتشدق بالكلمة والحرف .. عليه أن يكسر قلمه .. ويكم فاهه .. ويرحم الحرف وقدسيته، ويتركنا نعيش بسلام وهدوء .. ذلك قد يكون اكثر اخلاقية من استمراره بالاعتداء والطغيان على فكر الانسان وكرامته .

« الكاتب »

هنري دافيد ثورو شخصية فذة في سجل الفكر الانساني ، لامرين اثنين أولهما : استنتاجاته الاجتماعية . وهذه تستند جميعا الى اختباراته الشخصية فقط ، وكان يأبى ان يخرج من دائرة ذاته ، وانما يكتب عما يشاهد ويلمس . وكما ذكر في مقدمة كتابه « والدن » .. « انني لا أرغب في التحدث كثيرا عن نفسي اذا وجد شخص اعرفه جيدا » ولم يكن هذا سخرية منه . وثانيهما : ان ثورو هو الوحيد بين المفكرين الامريكيين الذي اعتنق مبدأ الفوضوية الفلسفية . وفيما عدا كرهه الشديد للعبودية ، فان مشاركته في الشؤون العامة محدودة . لقد عشق الطبيعة وهام بها قبل كل شيء آخر . فلم يهتم بالسياسة كثيرا ، حتى لم تظهر في كتاباته ونتاجه الا قليلا وبنسبة لاتذكر . ولكن الذي دبجه في الموضوع سواء بصورة مباشرة – كما في كتابه « واجب العصيان المدني » مثلا – أو غير مباشرة – كما – في فصل الاقتصاد في « والدن » .

كان شذوذا منه يتفق مع شذوذه في اخلاقه واسلوب حياته . وليس هناك مفكر أو أديب مشهور كتب في حياته عن تحقير الحكومة ونبذها مثل « ثورو » المفكر الذي اعتنق مذهب الفردية . يالها من ميزة قاسية ، برغم من كونها شاعرية ، ملك الميزة التي يدين بها الحكومة والنظام الاقتصادي الذي تقوم عليه هذه الحكومة . ومع تطرف آرائه فهي تعد آراء انسانية أصيلة على كل حال .

ولد « ثورو » – هذا المفكر الشامخ – في مدينة كونكورد من ولاية مساشوستس سنة ١٨١٧ م وكان أبوه « جون ثورو » صانع اقلام رصاص ، من جزيرة جرسي الفرنسية ، ينحدر من أصل اسكتلندي . اما أمه فهي ابنة قسيس من نيوانجلند .

ولقد كانت عائلة « ثورو » من الصناعيين البسطاء ، أما هنري ثورو نفسه ، فلم تظهر عليه اية مزية بارزة في مطلع شبابه ، فيما حبه الوثني وسروره بالطبيعة . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره سجل اسمه في اكاديمية كونكورد في الفصل الدراسي الاول المنتهي بشباط سنة ١٨٢٩ وقد ذكر ذلك فيما بعد بقوله : « لقد وجدت نفسي غير لائق لدخول الكلية » .

ثم ذهب بعد ذلك الى هارفارد وهي كلية صغيرة آنذاك ، بيد انه لم يجد لذة في دراسة الكتب ، فيما عدا آداب الشعراء الاغارقه . وبعد ان حصل دراسته وتخرج من هارفارد سنة ١٨٣٧ كان قد بلغ العشرين من العمر ، ولقد اعال نفسه عن طريق التدريس فترة ليست بقصيرة من الزمن ، ثم عمل في مكتب للمساحة ، وقد مارس ايضا الاعمال اليدوية نفسها . وبين الرابعة والعشرين من عمره حتى السادسة والعشرين عاش في بيت « امرسون » الحكيم المفكر الذائع الصيت حيث كان يقوم بالاعمال البيتية الخفيفة ، وكما كان يعامل كفرد من افراد هذه العائلة .

ثم أصبح عضوا في حلقة المترفعين ولكن عضويته لم تدم طويلا لانه كان يعمل عن بعد بين اعضائها . ذلك لان افكاره كانت خاصة يغذيها بالصورة التي يريدها فلا تؤثر فيها آراء الآخرين . وفي أواخر حياته كان رجلا سهلا قريب المنال في مريته كونكورد .. وعاش محتاجا يطلب الحصول على مايقيم أوده وبقيته ، وانه كان يعيش ارتجالا من ساعة لساعة .. أي كل لحظة بلحظة . وكان الحر الوحيد في مدينته التي زخمت في العبودية والرق .. فكان يعمل دائبا على تحرير العبيد . وهو رجل غريب الاطوار ، ولكنه ظل متحرما عند الجميع من ابناء القرى .. وكانت نظرتهم اليه كرجل قديس متنسك زاهد في الحياة .. يكفي نفسه ويعيلها لنفسه ، ولا يهتم بما يقال عنه . وكأن شكله غريب بتركيب جسمه .. لقد كان مثلث الزوايا ، طويل الساقين ، قصير الجسم ، ذا اكتاف ضيقة تشبه الى حد كبير اكتاف المصاب بالسل . وكان رفيقه الاوحد

مظلة يحملها اينما ذهب في كل الاوقات حتى بين اشجار الاحراج !!. وبالرغم من تكوين مظهره الذي لايدل على النجاح ، فقد اتصف بالمرح .. وكان ينظر الى بيئته ومجتمعه بسخرية لاذعة .. كما اتصف بالخشونة احيانا ، كما يفعل الانسان الذي سلخ القيم المادية من نفسه ، وترفع عن توافه الاطماع . وكان يقول دائما : « ماهو عمل الانسان بالنسبة لجمال الطبيعة وخلقها ــ شكل الورقة التي يحملها الغصن ، ورشاقة الطير المحلق في اعالي السماء ــ لقد بقي عمل الانسان حقيرا تافها مهما ابدع .. وجميع جهوده المضنية تافهة لاقيمة لها . ولقد سحره عالم الطبيعة فكان يقرأه بدقة متناهية ، وكأنه يقرأ كتاب مقدس مفتوح وكان دائما يقهقه مسرورا عندما يراقب مسلك بني وطنه ، وهم ينظرون فلا تتعدى نظرتهم انوفهم.. فينظر اليهم نظرة ملؤها التهكم لانهم في نظره لايتعدون الا أوهام متجسدة لامعنى لحياتها على الاطلاق . وبالرغم من ذلك كان متفائلا !!.. وقد ازعج المفكرون المعاصرون له في أعتدائه الفكري عليهم ، وكل ماكان ينشده هو التحدي ورفض المجتمع وعلى الرغم من عدم اختلافهم مع آرائه !!.. وكل ماقاله وكتبه كان ساخرا للغاية . فهو يقلب العالم رأسا على عقب .. يمتدح الثلج ويطري دفئه!!.. ويثني على رقة البراري، وثقافة الحطابين وأنس الفلاة . ويرى انه كلما كان الانسان فقيرا فهو غني ، وكلما اتعب نفسه بالعمل اصبح فقيرا !!. وأقترح ان ينقلب النظام الاسبوعي المتبع ــ بأن يخصص يوم واحد للعمل والبقية للراحة. « وأعتقد ان عمل اسبوعين في العام كاف لان يزود الانسان بحاجاته الضرورية . وأما بقية الوقت فيجب ان يقضيه الانسان بالمتعة في الحياة ، بدلا من قضائها في جمع المال والاملاك .. أو الحصول على السلطة»....

وهو يسأل : « ما الذي يجنيه هؤلاء المواطنون من كدهم المتواصل ؟.. سواء كانوا فقراء أم اغنياء فقد قيدتهم حاجاتهم المادية واستعبدت حياتهم ضمن دائرة من الاشياء لا معنى لها ولا هدف . ولكن الناس يعملون نتيجة خطأ . وأفضل مافي الانسان انه يزرع في التربة من أجل السماء !!. فباحتمال وجود القدر الذي نسميه بالضرورة والحاجة .. يعملون فيلقون بكنوزهم التي سيأكلها البلى ، ويفسدها الصدأ ، ويسرقها اللصوص . ويالها من حياة !!.. وسيعرفون ذلك جيدا عندما يبلغون ارذل العمر . » .. فهل يستطيع العمل أو الملك ان يجعلا الانسان افضل وأنبل وأسعد في حياته ؟.. ان المزارع الذي لايملك الارض بالرغم من كده المتواصل وجهده المضني ، نرى مزرعته مرهونة للصيارفة والمرابين ، ولو كان ذلك الشخص مالكا حقيقيا للارض فما الذي سيجنيه منها، وما هو مقدار الخير الذي سيناله ... مادام هناك نظام الضريبة المرهق ؟ انه قلما يرتفع الى مستوى عبوديته وعنائه . انظروا الى الحراث وهو في طريقه الى السوق ليلا أو نهارا .. انظروا اليه عند عودته من الحقل .. هل يثيره أي سمو روحي ؟.. أليس عليه ان يطعم خيوله .. وماشيته ويسقيها بحتمية الواجب ؟!.. انظروا اليه كيف ينحني وهو يئن ويتملكه الخوف طوال ايام عمره !!.. فلا هو بالرجل الخالد ، ولا هو بالانسان السامي ، وانما هو عبد لنفسه ، وسجين اعتداده برأيه . وليس المزارع عندنا عبد لنفسه فحسب بل « يقيده ثوره وحصانه وشاته ، ودواجنه » . انه قليل الاعتماد على نفسه .. لذلك تراه في حاجة الى حيواناته لتعمل من أجله .. وهي تنهكه وتجهده بمطالبها . وهكذا يؤدي اعتماد الانسان على الحيوانات الى وضع شاذ ، انه يكرس وقتا لايستهان به من حياته لاطعامها والعناية بها . وبهذا الوضع يصبح الحيوان معه سيد الانسان . « اني أعتقد بأن الانسان هو صاحب الماشية بقدر ماهي صاحبة له . انها اكثر حرية منه . » والانسان لايعمل من أجل الحيوان داخل نفسه بقدر مايعمل للحيوان خارجها . ولو ترك المزارع مزرعته وعمل اجيرا في احد المصانع فهل سيكون احسن حالا عن ذي قبل ؟.. ان كده لن يرفع من مستواه !!. ونتاجه ليس له ليتمتع به ، انه يعمل ولا يستطيع اكثر من استبدال شكل من العبودية بشكل آخر ، فالمزارع يعمل في حقله من أجل اطعام البهائم ، والعامل في المصنع يعمل ليس الا ليزيد من ثراء صاحب العمل : « ولست أعتقد ان النظام المتبع في المصنع هو افضل طريقة لحصول الانسان على الملبس .. فأحوال عمالنا تدعو الى الرثاء والشفقة ولاعجب في ذلك ، فليس الهدف الرئيسي من كدهم وعملهم هو توفير الملابس للانسانية بقدر ماهو من أجل ثراء اصحاب الشركات والمصانع » .. ومع ذلك يرى « ثورو » الاغنياء لايحسدون . فيتسأل : ما الذي استفادوه من ثرائهم ؟ ... ويكون الجواب عنده .. بالطبع انهم لايستطيعون ان يكسبوا السمو الروحي ، أو النبل الاخلاقي ، وهذه حب المزايا الوحيدة التي يجب ان يكافح بني البشرية في نشدانها .. وأما الانصراف الكلي لجمع الثروة هو شكل آخر من اشكال العبودية !!؟. « انني أفكر في الاغنياء فأجدهم

أفقر طبقة في المجتمع ، لقد كدسوا هذه النفايات من اموالهم ، وهم لايعرفون كيف يستعلمونها ، أو كيف يتخلصون منها . وهكذا نجدهم قد أعدوا لانفسهم بأنفسهم قيودهم ، ولا خلاف ذهبية أم حديدية ويكفي انها قيود » . ومن هنا نجد ان هذا المفكر يعتقد بأن الاهداف المادية ، والانظمة الخاصة بها ، ماوجدت الا لافقار الانسانية والانحطاط بها الى الدرك الاسفل ، لانها تحرم المرء راحة الفكر والسعادة ، وتجعله قلق مضطرب دائم التفكير كيف سيضاعف ثروته .. وليس المهم كيفية الطرق انما المهم جمع المال ولو على حساب جماجم الضعفاء .. وحرمان الاطفال رشفة حليبهم!!. في المدينة والريف على السواء ، فقد الناس متع الحياة ومسراتها ، فهناك في عالم الجشع يفقد الانسان قيمته الاخلاقية . ويأتي « ثورو » ليقول : « انهم لايستطيعون ان يتمتعوا باللعب واللهو في هواء الطبيعة الطلق ، فهنالك يأس خفي يكمن وراء مايسمى بلهو البشرية وتسليتها . ان الناس يعيشون حياة هدوء بائس مقيت ... » وقد قام « ثورو » بتجربة « والدن » ليرينا تجربته .. وليثبت نظريته القائلة بأن في مقدور الناس ان يعيشوا مستقلين وسعداء اذا ارادوا أن يحيوا حياة بسيطة كالطبيعة . وهو يشعر ان اعطاء مثال عملي على ذلك يمكن ان يقنعه برأيه على الاقل طالما انه لايستطيع ان يصلح الاخرين . ولم يكن رأيه في نفسه كفيلسوف يعني مجرد حيازة فكرات تدل على الحذق والمهارة ، أو ايجاد مدرسة بعده ، بقدر ماهو رأي في حب الحكمة ... والعيش حسب نواهيها وأوامرها ، في حياة كلها بساطة واستقلال وثقة بالنفس . ويقول في ذلك : « لكي يكون الانسان فيلسوفا يلزم ان يتوصل الى حل بعض مشاكل الحياة ، ــ عمليا لانظريا ــ . » قام « ثورو » لاثبات فكرتين : أولهما انه يمكن العيش بسعادة بأقل قدر من المقتنيات . اذ انه مادام يقيم وزنا لحريته ويفضلها على ماسواها ، فلم يشأ ان يقضي وقته في اقتناء السجاد الفاخر ، والاثاث الجميل ، والادوات المطبخية الفاخرة ، او بناء وأمتلاك قصرا على الطراز الاغريقية أو القوطي .

وأما الفكرة الثانية فهي متممة للاولى : وهي ان الانسان يحتاج الى اقل قدر من العمل البسيط لاعالة نفسه والحفاظ على حريته . فكان يقول :

« ليس من الضروري ان يكسب خبزه بعرق جبينه، مالم يعرف بشكل اقل ارهاقا لما أفعل » . ان الحياة يمكن أن تكون جميلة بأقل قدر من العمل . وطوال عامين من تموز ١٨٤٥ ــ ١٨٤٧ م عاش ثورو خلالهما في « والدن بوند » بكونكورد ، في كوخ بناه بنفسه بفأس استعارها من احد اصدقائه . وكان يقول عن كوخه « ان بيتي هذا متين ، طوله خمس عشر قدما ، وعرضه عشر اقدام ، ويبلغ طول اعمدته ثمانية اقدام، مستكمل الشروط الصحية ، له نافذتان كبيرتان وموقد من الاجر » . وقد بلغت تكاليفه في بناء هذا الكوخ ٢٨ دولارا واثنى عشر سنتا .

اذ قام صاحبه بنفسه بصنع الاثاث ــ من مكتب وطاولة وكراس ثلاثة ، ومرآة . وأما ادوات المائدة والمطبخ فقد حصل عليها دون مقابل . وزرع ثورو فدانين ونصف من أرضه الرملية التي تبلغ مساحتها أحد عشر فدانا بالبطاطا ، والحنطة ، والحمص ، واللفت ، وأضاف الى ذلك ان اشترى أرزا ودبسا ولحما وطحينا وسكرا وشحما ، بمبلغ ثمانية دولارات و ٧٤ سنتا للثمانية اشهر الاولى ، أما الملابس والزيت وبعض الادوات المنزلية ، فكانت تكاليفها عشر دولارات وأربعين سنتا . وأجرة المزرعة السنوية ١٤ دولارا و ٧٢ سنتا . وهكذا فان مجموع مصروفه (دون ثمن البناء) ، ٣ دولارا و ٣٤ سنتا وفي هذه الفترة كسب ثورو ١٣ دولارا و ٣٤ سنتا لقاء قيامه ببعض الاعمال الغريبة ، كما كسب ٢٣ دولارا و ٣٤ سنتا من بيع بعض منتوجات مزرعته .

فبلغ مجموع دخله ٣٦ دولارا و ٦٨ سنتا ــ أي بزيادة دولارين واثنين وثمانين سنتا على ماصرفه . وكان يقول في نفسه : « هكذا يكون النصر على رأسمالية الاقتصاد الامريكي ، فها قد قمت بأود نفسي بعمل يدي وحدها ، ووجدت ان ستة اسابيع من العمل في السنة تكفل لي الحصول على جميع تكاليف معيشتي . فأصبحت حرا طليقا طوال فصل الشتاء والصيف ، ولذا قضيتهما في الدراسة العميقة .

والواقع انه بفضل تجربته هذه ، تمكن من تأليف كتاب « والدن » او « الحياة في الغابات » عام ١٨٥٤، والذي يعتبر من أجود ماكتب « ثورو » ولم يصادف كتابه هذا مثل كتابه « اسبوع » على نهر كونكور » ــ الكتاب الاخر الوحيد الذي ألفه ــ نجاحا تجاريا . فلم يكد يرد تكاليف طبعه . لكنه احسن بقليل من كتابه الاخر الذي طبع منه ألف نسخة فأعيدت اليه ٧٠٦ نسخ ، علق عليها بقوله :

« لدي الان مكتبة من تسعمائة مجلد ألفت بنفسي اكثر من سبعمائة منها » . ويعتبر كتاب « والدن » خلاصة آراء « ثورو » وهو يظهر مدى تعلقه بالطبيعة. فيثير السبيل الى تفهم فلسفة السياسة الاجتماعية .

انها علاقة « ثورو » ببيئته الطبيعية ، تلك هي التي أوغلت به في الابتعاد عن العالم البشري . لقد توطدت العلاقة المنسجمة بينه وبين الكائنات الحية ، حتى اصبحت الطيور تلبيه اذا دعاها ، والاسماك في البحيرة تنساب بين يديه في آمان واطمئنان . والريح حتى الريح بدأت تعينه !! .. وتثور العاصفة لتعزف له موسيقى ساحرة ابدية في أذنيه . وأبر شجر الصنوبر اضحت صديقة له .. والطيور المائية تتضاحك له فرحة به عشيق لها حتى اصبح هذا الانسان الرقيق في مشاعره وحسه جزءا من الطبيعة الخلاقة الخلابة . حتى قال : « انني لم اعد وحيدا ، كما انني لم اعد اشعر بوحشه الوحدة وغربتها .. كما شجرات الدفلى في الحقل .. والزهور .. والمروج بحشائشها .. ليست وحيدة .. ان النجم القطبي ، والريح الشمالية ، ورذاذ الربيع ، والعنكبوت في البيت المهجور ليست وحيدة . » . لقد اهانت البشرية هذا الانسان الشامخ اهانة لاتغتفر ... لانه استغرق في تأمله للطبيعة حتى غدت معبده الذي تنسك به وتزهد في محرابه الخالد . أما هو فقد أحب الجنس البشري واشفق على ظلمه وتسلطه وطغيانه على مجتمعه المضطهد .. الا انه لم يعطف على الانسان !!....

فقد انعزل عن العالم اصلا ، فلم يتزوج . وقلما اشترك في أي نشاط اجتماعي أو مدني . بيد أن موهبته في النقد الذي وجهه لانظمة البشرية وعيوبها كانت شديدة اللهجة قاسية بصورة شاذة .. وازداد شعوره بالابتعاد عن جيرانه حتى مضت عليه سنوات لم يدفع فيها ضريبة الانتخابات . وفي عام ١٨٤٥ قضى ليلة في السجن لرفضه الدفع . وبرغم من الضريبة الطفيفة القليلة جدا . ولكنه المبدأ ـ لقد كان المال سيصرف في سبيل الحكومة التي تجاوزت عبودية الرق وشنت الحرب ـ فذهابه الى السجن تبرير اخلاقي لمسلكه . وهو يقول في ذلك الشأن : « ان حكومة تسجن ظلما .. يكون المكان اللائق بالرجل العادل هو سجنها » . وهذه العبارة التي دوى بها صوت الزعيم الاشتراكي « يوجين دبس » بعد ذلك بخمسة وسبعون عاما . وكان نتيجة سجن « ثورو » برغم مدته القصيرة، ان صاعد من احتقاره لجميع السلطات الشرعية القائمة آنذاك ، بكل جهازها المؤلف من الشرطة ، والسجانين ، والقضاة . وأشد ما أزدري الافتراض الذي يأخذ به النظام القضائي عادة .. من أن الاراء يمكن ان تسجن وتقيد ويعاقب عليها كما لو كانت اشياء مادية محسوسة . ومن خلال تأملاته في السجن ظهرت رسالته « واجب العصيان المدني » ثم تلاها برسالته الثانية « اعتذار للكابتن براون » وذلك عام ١٨٤٩ و ١٨٥٤ . فاذا اضفنا ذلك الى خطبه التي هاجم بها العبودية وقانون الرق ، تكونت معنا فكرة واضحة عن مدى مساهمة « ثورو » الرئيسية في محور الفكر السياسي الامريكي . وليس « العصيان المدني » الا عبارة ملازمة لفلسفته في الحكومة ، كما أن خطبه توضيح لهذه الدائرة السوداء في سجل التاريخ الامريكي في ظلم الانسان للانسان . وموضوع الكتاب ينقسم الى قسمين : الاول ازدراء الحكم القائم . أما القسم الاخر فهو يعبر عن تفوق قيم الاخلاق كما تظهر في الافراد ، وعلى الحكومة وشرائعها .. والحكومة القائمة هي الحكومة الامريكية الاتحادية شيء مزدري في نظر « ثورو » . لانها في تقديره منعدمة الاخلاق والشجاعة . وفي ذلك قوله : « دولة بذيئة في ثوب قديسة » ولم يمتد سجن « ثورو » الثاني طويلا ولكنه أثر في نفسه وضر في روحه .. ولما خرج منه توارى عن الناس جميعا وأرتحل الى الطبيعة عالم الله الجميل .. وأخذ يجمع التوت البري ، وهو يذكر ذلك ساخرا متهكما : « انني لم اعثر على حكومة تتسلط علي بين اشجار التوت البري » . فلماذا يطلب من الناس شيئا يستطيع ان يستغني عنه التوت البري ؟.. لقد اجتهد « ثورو » على وجود حكم .. لكن بشرط ان يكون محدودا ومستندا الى الاخلاق والعدالة الفردية. وان الانظمة القائمة لاتستحق التقدير ، وجعل قوله : « انني وجدت الحكومة تفتقر الى الذكاء ، وهي جبانة في تكوينها كأمرأة عذباء تملك ملاعق من الذهب أو الفضة.. كما انها لاتعرف أعداءها من اصدقائها . لقد فقدت كل احترام بقي لها في نفسي . وأنني وأيم الحق لاشفق عليها » .

وكان منذ زمن بعيد قد تقبل الشعار القائل ـ بأن افضل الحكومات اقلها قيودا ـ الا انه حسب ماجاء في « العصيان المدني » ـ ان افضل الحكومات هي التي لاتحكم على الاطلاق ـ وحجة « ثورو » تنبع من شرعية الحياة والمجتمع الاساسية لاتستند الى الاخلاق بل الى الحماية ، وهو لايعترف الا بضرورة توفير شيء من الحماية . مثل حماية شخص من شخص أخر . اما حيث تخطي الحكومة هذا الواجب وبدأت بالضغط على الفرد فقد خرقت بذلك شريعة الاخلاق فصار واجبا والتزاما علينا عصيانها . ولهذا نراه يصرح بأنه في أي صدام يقع بين ماتعتبره الحكومة موافقا لها وبين مايعتبره الافراد اخلاقا ، ينبغي على الفرد ان

يفضل شريعة الاخلاق فيرفض الانصياع . ومن رأيه « انه ليس لاي حكومة الحق الخالص فوق أي انسان، أو ملك بدون موافقة الفرد » . لم تؤثر الاداة الحكومية القائمة ، ولا نظام الاقتراع بأكمله ، أو نظام الاكثرية والدعاية السياسية في أفكار « ثورو » وكان يرى كل ذلك تدعيم للمعنى .. فما يعنيه هو روح الديموقراطية لاجهازها . والشيء الاهم ينحصر في ان يكون الانسان سديد الرأي بدلا من ان يدلي بصوته بشكل صحيح. ذلك لان الاكثرية لا معنى لها بذاتها اذا لم تأخذ القضية الاخلاقية بعين الاعتبار . وقد نظر هذا الفيلسوف ذو الفكر الشامخ الى الامور في أمريكا سنة ١٨٤٩ وكان قوله فيها : « ان التصويت عبارة عن مقامرة ـ بالصواب والخطأ ـ فالاداة السياسية المجهولة لاتستطيع ان تحافظ على سلامة روح الامة .. وان الحاجة ماسة الى شيء أسمى من هذا .. ان الذي نحتاجه رجال لاسياسة .. ونزاهة واستقامة . فان مصير البلاد لا يتوقف على كيفية التصويت ، ولا على نوع الورقة التي نضعها في صندوق الاقتراع مرة كل انتخاب .. بل على نوع الرجال الذي نختارهم . وهكذا دعا « ثورو » في جميع فلسفته السياسية الى الشريعة الاخلاقية التي يترجمها ضمير الفرد أعمالا ، ويقارن ذلك بأوامر الحكومة التي يستنكرها . وهو في الواقع يعني الغاء الفرد لكل شريعة وقانون لا يوافق عليه ، واعتزاله الحكومة متى دعت الضرورة الى ذلك . ويعلق على هذا قائلا : « كيف يتوجب على الانسان أن يعامل الحكومة الامريكية القائمة ؟.. » ثم يجيب على هذا السؤال شارحا موقفه بذلك : « ليس يسعني الا أن أشعر بالخزي والعار .. فلست أستطيع أن أعترف بهذه المنظمة السياسية واعتبارها حكومتي وهي حكومة عبيد » . فالقانون عنده ليس مشروعا اذا كان منافيا للعرف والاخلاق، حتى لو كان قد حظي بموافقة الاغلبية. هكذا كان الامر بالنسبة لقانون العبيد الآبقين (١٨٥٠) الذي يتطلب من السلطات الحكومية تسليم الزنوج حين يفرون .. الامر الذي اعتبره « ثورو » أمرا سيئا للغاية .. كما يجب مقاومته بشدة لا تعرف الهوادة . وفي كتابه « اعتذار للكابتن براون » ينكر شرعية القوانين التي حكمت على ذلك ـ الداعية العظيم ـ بالغاء الرق . وفيه يرى « براون » لم يخل بالقانون ، ولو أجمع جميع القضاة والمحامين على ذلك . أما السبب في انكاره فهو ما يعتقده من أن القوانين السائدة الخاصة بالرق والعبودية مخالفة للقوانين الاخلاقية والاعراف الانسانية وهي أسمى من أي قانون آخر وضعه البشر . وهو يتساءل في كتابه « جون براون » « اليس من الممكن أن تكون الحكومة على خطأ والفرد على صواب ؟.. وهل من الواجب تنفيذ القانون لمجرد أن الحكومة سنته ؟.. أو لمجرد أن عددا من الناس أعلنوا أنه صالح ولو لم يكونوا هم أنفسهم صالحين ؟.. وهل تراه لزاما على القضاة أن يفسروا القانون بلفظه وماديته لا بروحه وذوقه ؟.. ومن الذي خولكم أيها القضاة الحق في أن تتفقوا بأن تعملوا .. كيت .. وكات ، مخالفين بذلك النور الملهم في أنفسكم ؟ .. انني لا أقيم وزنا للمحامين أيضا . لانه بالنسبة للقضايا الهامة ، ليس مهما أن يخرق الانسان القانون او لا يخرقه . دع المحامين يفصلون في الامور التافهة . فلو وجدوا ليفسروا الشرائع الخالدة التي تربط الناس برباط الحق والواجب لكان ذلك مسألة أخرى فيها وجهة نظر مختلفة تماما . انهم ليسوا أكثر من مصنع لتزييف الحقائق والقانون معا .. أقيم منه قسم في بلد حر ، واقيم القسم الآخر في بلد سكانه من العبيد . فاي نوع من القوانين ننتظر من هذا المصنع للاحرار من الناس ؟... هكذا تحدث « ثورو » الى أمريكا الذي قضى عمره مضطهدا ممزقا لانه كان دوما يصغي الى صوت الحقيقة الخالدة .. والى نشيدها الازلي ... مات في مدينة « كونكورد » عام ١٨٦٢ وقد بلغ من العمر الخامسة والاربعين .. ولكنه برغم اعتزاله العالم المادي .. عبر عن افكار لاتبدو عمليه آنذاك ولكنها ظلت كالشمس مضيئة .. بقاء ومضاء .. ظلت بصوت الضمير الانساني والاخلاق تجربة انسانية خلاقة . لقد كان مفكرا أمينا ، انسان اصطفي ليعلن رأيه في الحياة ، والكلمة المسطورة ، التي هي عقل الحياة في حالة التعبير .. وقد بلغ من نزاهة عقله ، وأمانة حسه، وشجاعة روحه .. وسلامة قصده مكانة رفيعة في الاخلاق . وان الخلود قد فسح له مكانا كبيرا .. دخله بشقاء مدمي .. وجلس بمكانه خالدا بين رفاقه الخالدين . لقد رأينا كيف سطر « ثورو » كلماته الموجزة ولم يطلب عليها أجرا مشكورا .. وتاهت كلماته في زخم الحياة ، حتى عثر عليها « غاندي » فكانت المشعل الذي أضاء له الطريق ، والاداة التي حقق بها أبهى وأعظم تجارب عصرنا الحديث في مجال السياسة والوطنية . أهناك وسام ، أو جزء يمكن أن يبلغ مستوى هذه المثوبة وهذا الجزاء ؟.

الدكتور
محمد جبر : حلب
١٩٨٠/٦/٢٥

جدلية العلاقة بين الشكل والمضمون في الشعر

سعد الدين كليب

امامي الآن وردة طبيعية تملأ علي انفاسي رائحة طيبة ولذة خفية وتوشح ناظري جمالا وروعة ... أتساءل: لماذا هي كذلك ؟.. أترى شكلها يعطيني الرائحة أم رائحتها توحي الي بأن شكلها مغر وجميل .. أم .. أم .. ؟!

أسئلة كثيرة لا حصر لها تحضرني الآن، وتذكرني بشيء اسمه الفن والذي قد تصارع النقاد على منبع تأثيره – كصراعي الآن أمام الورود – واختلفوا .. أتراه الشكل هو المؤثر .. أم المحتوى أم الاثنان معا ..؟

يكتب (آلان روب غرييه) قائلا « ان أملنا كله معقود على الانسان ... فبواسطة الاشكال التي يخلقها الانسان فقط يمكن أن نسترجع المعنى الى العالم »(١) وبالتالي فان الشكل يخدم المحتوى خدمة جلى يثبته ويقويه، والمحتوى يبرهن على قوة الشكل وتأثيره وتأديته وظيفته. أي ان العلاقة بينهما علاقة جدلية يصعب بل يستحيل الفصل أو التفريق والمفاضلة بينهما اذ ان حضور جانب يستدعي حتما حضور الجانب الآخر والا .. كيف يمكن لنا أن نتصور شكلا قائما بذاته خاليا من المحتوى أو محتوى خاليا من شكل ما ..؟ حتى أولئك أصحاب مدرسة « الفن للفن » هل قدموا أعمالا فنية خالية من محتويات ومضامين ؟ – لست هنا في صدد التقدمية أو الرجعية – من المؤكد سوف يكون الجواب بالنفي.

ان قانون الحياة يفرض سيطرته على كل ما دخل في معمعة الياة .. فقانون التعاون والاشتراك والتمازج لتأدية وظيفة ما .. هو قانون حياتي نلحظه بكل شيء حياتي سواء كان في الكائن الحي أو الطبيعة أو الفن أو العلم.

وهذا التمازج أو التعاون هو الذي يؤدي بهذا الشيء أو ذاك الى أن يكون هو ذاته أي أن يحمل هويته ويفرض نفسه متكاملا غير مبتور.

فالموسيقا الصاخبة مثلا والتي قوامها الآلات النحاسية والطبول المزمجرة والتي تملأ الصالة ضجيجا وصراخا انما تعبر عن عواطف ومشاعر صاخبة غير منتظمة، يشوبها الابهام والكبت. والعكس بالعكس .. فحين أكون بحضرة موسيقا هادئة منسابة تكون العواطف والاحاسيس هادئة منسابة أيضا. أي ان « التعبير هو الفن وهو الجمال وهو تعبير باطني داخلي، تعبير يتجسد في أشكال مختلفة ولكن لا فرق بين الاشكال والمضامين ... فهما جميعا تعبير عضوي لا ينفصم فيه اللفظ عن المعنى ولا القالب عن المضمون »(٢).

ولهذا السبب وحده – أي التمازج – كانت كل ثورة انسانية تحمل معها فنها وأدبها – بشكله ومضمونه – حيث يختلف كل الاختلاف – أو بعضه – عن النزعة السابقة لها كاختلاف نزعتها الحياتية عن نزعة سابقتها

الحياتية أيضا . فكان أن تعددت الاشكال والاساليب بتعدد الافكار والنزعات . فالتغير الذي حدث في المجتمع الاوربي – والفرنسي خاصة – في القرن التاسع عشر والذي شمل التفكير والعادات والسياسة والاقتصاد أي انهيار القيم القديمة ووجود قيم جديدة أدى – في الفن والادب – الى سقوط النزعة الكلاسيكية وقيام نزعة تلائم الواقع الجديد وهي النزعة الرومانسية .

واذا ما خلصنا من ذلك .. يخطر في البال عدة أسئلة لعل أهمها سؤالان يشرئبان قائلين : الا يوجد قصيدة رائعة رغم رداءة شكلها أو رداءة محتواها ..؟
ثم هل يوجد شكل رجعي وآخر تقدمي ..؟

وقبل الاجابة على هذين السؤالين لابد من معرفة هدف الفن .. هل هو للتسلية المحضة عن الانسان ؟. أم هو للتطهير فقط .؟ أم للدفاع عن قضايا الانسان وأخذه نحو الطريق الافضل ..؟

واذا حق لي أن أضع رأيي فأقول : ان الفن هو هذه العناصر مجتمعة متضامنة فالعمل الفني المتكامل هو الذي يجذب الانسان ويسليه ويطهره ويوضح له الطريق ويحضه على الترفع .. – ولاشك أن هذه العناصر نسبية وقلما تجتمع في عمل فني واحد – وطبعا ليس هذا قيد يعيق الفن وانما هو من طبيعة الفن ذاته. فمن طبيعته أن يأسر الانسان في أسلوب شيق متين . وأن يطهره من رذائله وأيضا أن يدعو الانسان الى مايسر الانسان وينفعه ولهذا السبب كان الفن متغلغلا في كل الجوانب الانسانية صغيرها وكبيرها ، بعيدها وقريبها. فلا ينحصر في جانب دون آخر أو زاوية دون أخرى ولهذا كان رد ستالين حين قرأ مجموعة شعرية عاطفية مغالاة كبرى واجحافا بحق الفن والادب اذ قال : كان على الشاعر أن يطبع نسختين فقط واحدة له والاخرى يهديها لحبيبته . وأعود بعد ذلك الى السؤال الاول والى شق منه وهو وجود قصيدة رائعة رغم رداءة شكلها .. فأقول :

ان من مهام الشكل مهمة الجذب أي جذب المتلقي وجعله يثابر في تلقيه لهذا العمل الادبي أو ذاك وهذا يعني أن السلاسة في كثير منها تأتي من الشكل والا لكان بامكاني أن أطالع مقالة في الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو أطالع رسالة في الغزل والغرام كان قد كتبها مراهق حزين مادمت لااهتم بالشكل الذي يقدم به لي العمل الادبي أو الاسلوب المطروح بين يدي .. ولنقرأ الآن مقالة محشوة في قصيدة للشاعرة هدى نعماني تقول فيها :

١

أوقع الرب سباتا على سلومي فنامت
«كيل لبن» .. أصبغ به جناحي... نادى الغراب
فيشون ..جيحون .. حداقل ..
تمتمت السحرة

٢

ضابا يضرب النوم ..
انه يوبيل النازلين الى البيع »
توضح النملة
للاوابين تخرج الاسوار
« يا بيوت ، مدن ، ملك وهري « لهم »
الى أن لا تشتري الفضة فضة
كنرجسة تعمد النملة في الحقل »»(٣)

وعندما يشتط الفنان فيعطي الجانب الشكلي الاهمية العظمى ناسيا أو متناسيا الجانب الآخر – أقصد المحتوى – وكل همه أن يزركش أو ينمق هذه اللفظة أو تلك دون النظر الى تأثيرها وتعبيرها عما يختلج في نفسه أو عما يريد قوله تكون القصيدة عندئذ هيكلا مزركشا مائتا كشمطاء تضع على وجهها أحدث وأجمل ما أبدعته المصانع الفرنسية من حمرة وأدوات زينة بينما يسكن تحت ثوبها قبر متحرك وهيكل صدىء.

واليك الآن مقطع من هذا النوع حيث يوظف الشاعر موهبته لابداع مقطع كامل منمق تحدوه الموسيقا من جانبيه والسلاسة والانسياب .. ولكن لم يقل الشاعر فيه شيئا ذا أهمية تذكر :

لاتسلني عن الرصافة و الكرخ ولا من حلى به الانشاد
أسكر الجسر والرصافة وابن الجهم ، قد معطر مياد
وعيون المهى مهاريق للسحر ، فأين القلوب والاكباد
وعتيق من الرحيق (نواسي) ترامت بصنعه الابعاد
طالب في الكاظمية الحب والشعر ، وفي الاعظمية الارتياد
وبليغ من البلاغة والبحث ، عريق ، ومعشر أجواد
ما رأى الاصمعي أحلى ولاأبهى نسيجا. ولاروى حماد(٤)

* * *

ويأتي الآن دور السؤال الثاني وهو هل يوجد شكل رجعي وآخر تقدمي ..؟

وفي رأيي أن لا مكان للرجعية أو التقدمية في الشكل. لان المعول الاساسي يعود الى الدفقة الاولى أثناء الحالة الابداعية أي أن الفكرة أو العاطفة تريد الخروج من

العالم الباطني للشاعر والفنان – بشكل عام – للتنفيس عنه بأي شكل كان . وطبيعة قوتها أو فتورها هي التي تحدد طبيعة قوة الشكل أو فتوره . وتتحدد قوة الشكل أو فتوره بمدى تأثيره على المتلقي ومدى رسوخه في ذهنه . وهذا يقودني للقول – ثانية – أن لا تقدمية ولا رجعية في الشكل وانما هناك شكل مؤثر وآخر غير مؤثر أو شكل حي وآخر محنط .

واذا أردت التعميم فأقول : ان الفن لم يكن يوما رجعيا – ولكل قاعدة استثناء – وانما هدفه الاسمى هو الانسان وازالة الظلم والجوروالكبت والحرمانعنه.

« ان الرجعية تلصق بالفكر أكثر مما تلصق بالادب والفن . فهي تظهر بوضوح في الفكر الفلسفي أو السياسي الا أن ظهورها في عالم الادب يظل محدودا بينما يندر ظهورها في عالم الفن »(٥)

وأكبر مثل على ذلك الاعمال الادبية المطروحة في الساحة والتي طرحت منذ بدء الفن – أي منذ بدء الخليقة والتعبير عن النفس الانسانية – حيث كانت وما تزال تنطلق من الانسانوتصب فيه. وهنا تحضرني بعض الاعمال الادبية الشهيرة كالالياذة والاوديسة والشهنامة وبعض المعلقات الجاهلية – كمعلقتي عنترة وزهير بن أبي سلمى – وتمجيد البطولة من خلال تلك والحكمة والسلم من خلال هذه ... وقس على ذلك .

وصحيح أن الفن تعبير عن النفس الانسانية في كل أطوارها ولكن « من الادباء من تكون لهم أخلاق رديئة ولكنهم يتخلصون منها في كتاباتهم فاذا هم مثاليون»(٦)

« فبلزاك كان من غلاة الرجعيين في السياسة بينما كان في طليعة الادباء الواقعيين التقدميين .... وهذا ما جعل ماركس وانجلز يثنيان عليه أيما ثناء ويعتبران كتبه أبرز وثيقة تفضح بهتان البنية الاقتصادية والاجتماعية للرأسمالية » (٧) .

وبعد أن خلصت من التأكيد على نفي التقدمية أو الرجعية في الشكل خاصة – والفن عامة – لا بأس من مقطع كلاسيكي يثبت ذلك – يقول الشاعر سعيد قندقجي في قصيدة له انسانية :

يا أيها العالم السفاح أي ضحى
لو صنت للكون اشراق البطولات

لابد من عالم تبقى ضمائرنا
على مرافىء عينيه رضيات

لابد أن يبدأ الميلاد ان سنا
ينمو وراء دياجيك المغيرات

آمنت بالفرح المخزون منتصرا
على جنون لياليك العتيات
آمنت آمنت بالانسان في غدنا
أصفى من الدمع في عين النبوا(٨)

* * *

شكل كلاسيكي .. ومحتوى انساني تقدمي متعانقان عناق الصوفي للذات الالهية لا أريد هنا تقرير مدرسة أدبية دون أخرى أو اتجاه دون آخر وانما ثمة رأي اصرحه وهو ان امتزاج الشكل والمضمون يعطي التأثير ، والتأثير يعطي الفن ..

وبهذا يسقط زعم من قال « أما الموضوع فهو من وجهة نظر الفن أتفه عناصر القصيدة لانه في ذاته قاصر عن أن يصنع قصيدة .... وهذا يجعل من الضروري أن نقرر أن الموضوع شيء غير القصيدة ولا دخل له في تكوينها » (٩) .

فان ما قدمته كاف للرد على ذلك .. وأيضايسقط زعم من يدعي أن الموضوع هو أشرف ما في القصيدة وأنبل عنصر فيها .. لان القصيدة – كما هو معروف – ليست مقالة فكرية أو سياسية أو فلسفية .. وانما هي قصيدة فقط ...

وهذا لا ينافي قول (مالارميه) « الشعر لا تصنعه الافكار وانما تصنعه الكلمات » كأن الكلمات تعبير عن الافكار والافكار لا يمكن لها الظهور بدون كلمات وهذا يذكرنا بقول الفلاسفة قديما « ان اللغة دون فكر لغو والفكر دون لغة عدم » .

وأكبر شاهد على ذلك هو عبارة مالارمية ذاتها حيث أنها كلمات ولكنها أيضا فكرة مطروحة ولنسمع الآن هذه الكلمات ... للشاعر نزار قباني :

أتراها تحبني ميسون
أم توهمت .. والنساء ظنون
كم رسول أرسلته لابيها
ذبحته تحت النقاب العيون
يا ابنة العم .. والهوى أموي
كيف أخفي الهوى .. وكيف أبين
كم قتلنا في عشقنا .. وبعثنا
بعد موت .. وما علينا يمين

ما وقوفي على الديار .. وقلبي
كجبيني قد طرزته الغضون
لا ظباء الحمى رددن سلامي
والخلاخيل ما لهن رنين(١٠)

* * *

كيف نستطيع الفصل بين تلك الكلمات وبين ماتعبر عنه ؟! وكيف نستطيع أن نقول ان المعنى شريف والمبنى ضعيف أو العكس .. ؟! .. صحيح أنه قد يكون المعنى سخيفا ولكن المبنى يزيد المعنى سخافة اذا كان متقنا وممتعا .. أي ان الاثنين يشتركان في التأثير ولا فضل لجانب على الآخر .

وتتويجا لما قدمت من أن التأثير يأتي من الجانبين معا – المبنى والمعنى – لابأس من تطبيق عملي على مقطع نستجلي فيه مواضع التأثير . وزواياه ..

بعد أن عرفنا مصدر التأثير .. والمقطع الشعري يرتاح بين جنبي قصيدة طويلة للشاعر بدر شاكر السياب والتي عنوانها – مدينة السندباد – اذ يقول :

« أهذه مدينتي ؟ .. جريحة القباب
فيها يهوذا أحمر الثياب
يسلط الكلاب
على مهود اخوتي الصغار .. والبيوت
تأكل من لحومهم ... وفي القرى تموت
عشتار عطشى ... ليس في جبينها زهر
وفي يديها سلة ثمارها حجر
ترجم كل زوجة به .. وللنخيل
في شطها عويل »(١١)

ذلك مقطع من قصيدة مؤثرة يصور فيها الشاعر بغداد – أو كل مدينة مصلوبة الاماني – في عهد من العهود القريبة ..

ماذا لو سلخنا المحتوى عن الشكل في صورة – جريحة القباب – أو – وفي يدها سلة ثمارها حجر – ؟

هل نستطيع ذلك السلخ .؟ لا أظن .. لسبب بسيط وهو أن الدفقة الشعرية هي التي تحدد تكوينها وطبيعتها التي سوف تولد فيها – كما ذكرت من قبل –

وكما أن الانسان لا يستطيع أن يسبح في مياه النهر مرتين كذلك لا يستطيع أن يؤثر تأثيرا واحدا في صورتين مختلفتين .. وعلى كل حال .. لنجري بعض التغيير على صورة القصيدة وألفاظها مع البقاء على المعنى :

أتلك يا ترى مدينتي ..؟
قبابها عميقة الجراح
فيها يهوذا أحمر الثياب من سفك الدماء
يسلط الكلاب .. والذئاب
على حياة اخوتي الصغار .. والبيوت
تجتر من لحومهم ...
وفي القرى الحزينة الرؤى تموت
عشتار عطشى ...
.. لم تعد تحمل في جذورها زهر
أما يداها .. تحملان ثمارها حجر
ترجم كل زوجة به .. وللنخيل
في شطها المرصود بعض من عويل »

لاشك أن هذا التغيير بسيط في الشكل ، لكنه كبير في التأثير حيث قلب التأثير رأساً على عقب فلم نعد نشعر ذلك الشعور ازاء قراءة المقطع وانما أخذنا نشعر شعورا آخر مختلفا تماما له تأثيره الخاص وطعمه الخاص .....

وأخيرا ان افكار القصيدة وعواطفها ليست شيئا غريبا عن القصيدة .. والقصيدة أيضا ليست شيئا غريبا عن الافكار والعواطف .. فالكل واحد ..

وان من يحاول فصل المحتوى عن الشكل كمن يميز لمع البرق عن البرق .. ويدعي أن هناك برقا دون برق . وحسبي من هذا الفيض بهذا الفيض .

سعد الدين كليب
حلب – كلية الآداب –

---

١ – خلدون الشمعة – (النقد والحرية) – ص ٧٩ – منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٧ .
٢ – شوقي ضيف – (في النقد الادبي) – ص ٨٠ – دار المعارف – الطبعة الخامسة .
٣ – الموقف الادبي – العدد ٩٨ – حزيران ١٩٧٩ .
٤ – الموقف الادبي – عدد خاص بالنتاج الشعري – العدد ١٠٢ – تشرين الاول ١٩٧٩ ص – ٥٧ – والقصيدة للشاعر أحمد علي حسن
٥ – حنا عبود – (المدرسة الواقعية في النقد العربي الحديث) – ص ٢٤٨ – مطبعة وزارة الثقافة – دمشق ١٩٧٨ .
٦ – شوقي ضيف (في النقد الادبي) ص ٦٠ .
٧ – حنا عبود – (المدرسة الواقعية ...) ص ٢٤٧
٨ – الموقف الادبي – العدد ٩٨ – حزيران ١٩٧٩ .
٩ – نازك الملائكة – (قضايا الشعر المعاصر) – ص ٢٣٤ – دار العلم للملايين – الطبعة الخامسة ١٩٧٨ .
١٠ – نزار قباني – (الاعمال الشعرية الكاملة – الجزء ٢) ص – ٩٥٢ – منشورات نزار قباني – بيروت .
١١ – بدر شاكر السياب (ديوانه – المجلد الاول) ص ٤٧٤ .

الجميل في فلسفة هيجل

مصطفى العيسى

مقدمـة :

لعل هيجل أكبر فيلسوف أسهم في تطـوير علـم الجمال ، ولقد كان جورج لوكاش محقا حين قال : ((لولا هيجل لما كان علم الجمال كما هو عليه اليوم)) .

لقد وضع هيجل أكبر منظومة فلسفية بحث فيها شتى أنواع المعرفة الانسانية وأثار في فلسفته الجمالية قضايا ومشكلات كان لها صدى كبيرا في عصره وما زال لهذه الفلسفة تأثيرها الواضح على عصرنا هـذا حتى أصبحت العناية بفهم فلسفته ضرورية لفهم التيارات العصرية لا في الدراسات الفلسفية والجمالية وحدهـا بل وفي الدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية .

ولعل محور الفلسفة الالمانية في الجمال يرجع الى ((كانط)) الذي استطاع أن يبلور الاتجاهات الجمالية المختلفة السابقة والمعاصرة له والتي استوحت الى حد كبير الجمال المثالي المعبر عن الحقيقة الروحية في الفلسفة الافلاطونية الجديدة وسعى ((كانط)) الى توضيح أن الجمال في الفن والجمال في الطبيعة مستمد من حقيقة روحية وأن التجربة الجمالية توفق بين الارادة والاخلاق والطبيعة وقد مهد هذا الرأي لنشأة المثالية المطلقة عند هيجل .

طبيعـة الجميل :

يرى هيجل أن الجمال كما يظن البعض غير قابل لان يحبس في مفاهيم ويبقى بحكم ذلك موضوعا يعجز الفكر عن ادراكه ، فيجيب هيجل بقوله : صحيح أن كل ماهو حقيقي يعتبر حتى أيامنا هذه غير قابل للتصور وأن تناهي الظاهرة وعرضيتها الزمنيين هما وحدهما القابلان لان يقعا تحت الادراك ، لكننا نعتقد على العكس أن الحقيقي هو وحده القابل للتصور لان أساسها المفهوم المطلـق .

ان مضمون الجميل عند هيجل انما هـو الفكرة والروح المطلق وليس الجميل مجرد فكرة منطقيـة مجردة ، وانما هو الفكرة المتجلية في شكل حسي وقـد عرف الجميل بأنه رؤيا حسية للفكرة وهـو ينشأ في مرحلة معينة من مراحل تطور الروح المطلق الذي ينمو

ويتطور باستمرار وهو مبدأ كل ماهو موجود في العالم والروح المطلق حسب رأي هيجل بمثل الاتحاد بين ذاته وبين الطبيعة وبالنظر الى أن الروح نشاط يستطيع أن يميز نفسه عـن نفسه فينسجم عن هـذا التمايز الطبيعة ويرى كذلك أن كل مافي الوجود الانساني من مظاهر انما هو انعكاس للروح المطلق والجميل بدوره يعتبر مظهرا من مظاهر الروح .

والواقع أن أهم مافي فلسفة هيجل هو تأكيده على روحانية الجميل وهذه الروحانيـة ناجمة عن أنسنة للطبيعـة عن طريق العمل وأن العـلاقة بين الفـكرة وتجسيدها الحسي أو بين الشكلو المحتوى هي التي تحدد كمال أو عدم كمال الجميل والفكرة هذه ليست جامدة ثابتة بل هي متحركة متطورة نامية تنتقل من الغموض الى الوضوح والنضوج والتوافق مع شكلها واذا فان الجميل يتحقق في مرحلة معينة من مراحل تطور الفكرة وهذه المرحلة تتمثل في بلوغها مستوى من التحدد والوضوح والمعقولية أمـا التجسيد الحسي والتشكل فانه الجانب المادي من الجميل ولهذا عرفه هيجل بأنه الفكرة عندما تلوح والتجسيد الحسي خاضع بشكل اساسي للفكرة المتطورة وتوافق الشكل والمحتوى وتفاعلهما هو شرط الجميل الاساسي في فلسفة هيجل الجمالية .

والجمال عند هيجل ميدانية الادراك الحسي ادراكا لا يستلزم أقيسة عامة مجردة وهو فكرة عامة خالدة لها وجود منتقل تخالف الحقيقة ذاتها من حيث هي لها وجود ذهني غير حسي غير ان الحقيقة ذاتها قـد تتحقق في الخارج عن طريق وجود عيني محدد المعالم وفي حالة تحققها اذا اقترن ظهورها بادراكها دون أقيسة عامة لم تكن حقيقة فحسب بل حقيقة جميلة .

يقول هيجل : « ان الجمال فكرة ، نقصد بذلك أن الجمال والحقيقة شيء واحد ، الجميل لابد بالفعل أن يكون حقيقيا في ذاته لكننا لو أمعنا النظر في المسألة عن كثب لاحظنا فرقا بين الجميل والحقيقي ، الفكرة بالفعل حقيقية لانها متصورة بالفكرة بصفتها هذه ، وبمقتضى طبيعتها وكينونتها وما يعرض للفكر في هذه الحال ليس الفكرة في وجودها الحسي والخارجي ولكن في كونيتها غير ان المفروض بالففرة أن تحقـق نفسها خارجيا وأن تحوز وجودا محددا من حيثهي موضوعية طبيعية وروحية والحقيقي بما هو كذلك أي بتظهيره ذاته وبقدر مايعرض نفسه وقد تظاهر على هذا النحو للوعي أيضا ويقدر مايبقى المفهوم غير قابل للانفصال عن تظاهره الخارجي فان الفكرة لاتكون حقيقية فحسب بل جميلة كذلك على هذا النحو يتحدد الجميل بأنه التظاهر الحسي للفكرة ولا يحتفظ الحسي والموضوعية بأي استقلال في الجمال ، لذا تعجز ملكة الفهم عن ادراك الجمال .

والجميل هو على الدوام المفهوم الـذي بدل أن يتناقض مع موضوعيته يتداخل معها ويصبح بفضل هذه الوحدة لامتناهي في ذاته » .

ان هيجل لم ينظر كما فعل كانط الى المجميل من ناحية ذاتية شكلية بل نظر اليها من ناحية موضوعية ومن ناحية المضمون وكان له الفضل في انـه لم يقف عند حدود النظرية بل حاول التطبيق على الفن مـن الناحية العملية بتفسير الظواهر الفنية في ضوء العوامل التاريخيـة .

لكن هيجل يبقى بعد ذلك مثاليا في فهمـه لجوهر الجميل اذ الحقيقة الموضوعيـة في فلسفته تابعـة للفكرة وليس وجود لها مستقل الى بقدر مايكشف عنها الفكرة .

وبصورة عامة فان المنطلـق المثالي بصورة عامـة الذي اتخذه الفيلسوف قد حال بينهو بين فهم أعمق لجوهر الجميل .

الجميل في الطبيعة والفن :

وضع هيجل ثلاث مراتب للجميل هي :

الجميل بشكل عام والجميل في الطبيعة والجميل في الفـن .

وأكد ان الجميل في الطبيعة محدود ومنته ، وهو أدنى من الجميل في الفن وأن جمال الطبيعة فظ ومادي لانه كما يقول هيجل « لاوجود – عندما تقع أبصارنا على مشهد طبيعي لتنفصل عضوي بين الاجزاء متحدد بالمفهوم تبث فيه نفحة حياة وحدة تحقيقا للفكرة وانما امامنا مجدد تنوع للمواضيع وحشد خاوي من اشكال متباينة سفوح جبال اكواخ ومنازل غابات وشواطيء ...

ان الطبيعة اللاعضوية واللاحية لاتمت بصلة الى الفكرة » .

ان تفوق الجميل في الفن على الجميل في الطبيعة مرده الى ان الجميل في الفن انما هو من ابداع الروح وهو يحمل طابعها ومن جهة اخرى فانه نتاج الوعي والحرية ويكمن نقص الجمال الطبيعي في انه ليس جميل في ذاته مثلما هو ليس نتاج ذاته ولا موجودا بسبب ظاهرة الجميل .

ويمكن القول بصورة مجردة ان الفكرة هي الجمال الكامل في ذاته ، بينما الطبيعة من هذا المنطلق هي الجمال الناقص ، ويحاول « هيجل » أن يفسر الجميل في الطبيعة باعتباره لحظة من لحظات تطور الفكرة ، ان الجميل في الطبيعة يسبق الجميل في الفن ويحاول هيجل الخروج من هذا التناقض عن طريق البرهان ان الجميل في الفن هو وحده القادر على الوجود كفكرة ولكن القضاء على هذا التناقض لايمكن ان يحل في اطار فلسفة هيجل المثالية ويفضح تشير نيشيفسكي الجوهر المثالي في فلسفة هيجل المثالية فيقول « عندما نحدد الجميل باعتباره مظهرا للفكرة في كائن مستقل نتوصل حتما الى استنتاج مفاده ان الجميل في الواقع ليس سوى وهم من صنع الخيال » .

لقد تكلم هيجل عن جمال الطبيعة اللاحية ووصمها بالنقص ثم تحدث عن جمال الطبيعة الحية كالحيوانات والنباتات فأكد ان النبات أقل جمال من عالم الحيوان لانه يفتقر الى الشعور بالذات وامتلاك نفس وذلك مادام ينتج افراداً جددا يبقون به مرتبطين من دون ان يركزهم ويكشفهم الى حد تلك النقطة السالبة التي يغدو فيها الفرد ذات نفسه له استقلاله وحدوده بالقياس الى الاخرين » .

أما الحيوان فيمتلك قدرا أكبر من الجمال ولكنه طبعا وكما أسلفنا لايضارع جمال الفن « العلة الرئيسية لدونية الحيوان هي اننا لانعاين سوى المعالم الخارجية للشكل المغطى بالريش ... فما نراه من العضوي ليس النفس وانما التشكيلات التي تشغل مرتبة أدنى من مراتب الحياة وبما ان الحيوان لايحقق كينونته في ذاتها في شكل الداخلية فان هذه الاخيرة لاتتبدى لانظارنا في كل مكان وزمان وبما أن الداخلي يبقى داخليا فحسب كذلك يبقى الخارجي خارجيا فحسب أي بلا صلة ولا رابط بالداخل ومن دون أن تتغلغل النفس في اجزائه اما الجسم البشري فيتمتع من هذا المنظور بتفوق اذ يسمح لنا ان نعاينه في كل لحظة انه كائن واحد حي ومحبوك بنفس ورغم ذلك فان الحياة الداخلية لاتتظاهر في كل واقع الشكل البشري .

واذا فان مقياس الجميل الاساسي هو تظاهر داخلية الشيء وكلما اصطبغ الشيء بداخليته كان اقرب من الجمال والانسان لايمكن ان يتبدى للخارج في نشاطاته كافة وهو غير قابل لان يفهم طبقا لما هو وانما طبقا لما ليس هو بالفعل لانه يوجد في حالة تبعية للعوامل خارجية .

نستنتج مما تقدم ان الجمال يوجد حيث يوجد هناك حرية لكي تستطيع الروح الداخلية الفكرية ان تظهر للعيان وينتج عن ذلك انه لابد للجميل من استقلال ذاتي وحرية مطلقة .

وحيث ان الانسان والحيوان وكل ماتشتمل عليه الطبيعة تابع للعوامل الخارجية تنجم عن ذلك ضرورة الجمال الفني .

اننا نستطيع ان نتصور السبب الاساسي الذي قاد هيجل الى اعتبار جمال الواقع والطبيعة ادنى من جمال الفن انما هو نفور الفيلسوف من ذلك الواقع الذي كانت تعيشه المانيا فلقد كانت تعاني ابشع انواع القهر والاستغلال في عهد الاقطاع فقد كان الانسان وسيلة لغاية هي كسب المال وكان يفتقد في ظل ذلك النظام الحرية والكرامة .

ان صورة هذا الواقع القاتمة دفعت الفيلسوف الى النفور منه وبالتالي الى الاغراق في المثاليةوالذاتية ولعل الواقع الالماني الذي عايشه هيجل كان له كبير الاثر على فلسفته ككل وبشكل خاص على فكرته حول مصير الفن المأساوي واذا فان تقليله من أهمية الجميل في الطبيعة ـ كما اعتقد ـ له جذوره في الواقع الالماني المحزن وكل فلسفة لابد وان تكون متأثرة الى حد كبير بظروف عصرها .

الجميل في الفن :

يركز هيجل جل اهتمامه على الفن لان علم الجمال برأيه ماهو الا فلسفة للفن وبذلك يحتل الفن الصدارة في فلسفة هيجل الجمالية باعتباره أثرا من آثار الروح المطلق وباعتبار ان التجسيد الفني للفكرة هو المثل الاعلى للجمال ، يقول هيجل « الجمال في الفن هو جمال ولدته الفكرة ثم عاودت تلده من جديد وبمقدار ماتسمو الفكرة ومنتوجها عن الجمال في الفن يسمو الجمال في الفن فوق الجمال في الطبيعة » .

وتتبع أهمية الفن من كونه لحظة من لحظات وعي الروح المطلق لذاتها ، والروح المطلق تعي ذاتها في الفن بشكل حسي وغير مباشر ولذا فان مهمة الفن في رأي هيجل هي التعبير عن الروح بصيغة حسية .

والفن في رأي هيجل ليس مجرد تقليد للطبيعة بل هو تطهير للاشياء الملطخة بمصادفة الوجود اليومي وظاهريته » .

ان تقليد الطبيعة ومحاكاتها يمكن ان يكشف عن مهارة تقنية ، عن صنعه ولكنه لايمكن ان يولد العمل الفني الاصيل ، أن هذه النظرة التي نظر بها هيجل الى الفن نظرة فيها قدر كبير من الاهمية والصواب وهي تضع الفن في مكانه الصحيح بين شتى الفعاليات الانسانية وهنا فقط يكتسب الفن صفات خصوصية وتميزا واضحا .

يرى هيجل ان محتوى الفن انما هو الروح المطلق وفي هذه النظرة محدودية وقصور وافقار لمحتوى الفن وتجريد له من علاقاته الارضية ، ان محتوى العمل الفني اعمق واوسع ماتصور الفيلسوف المثالي .

ان محتوى الفن انما هو الانسان وكل مايتصل به من اهتمامات ورغبات ومشاكل وآلام وآمال ، ان حصر الفن في دائرة الروح المطلق يعني عزله عن الحياة والانسان وهذا الرأي ناجم عن كون الفيلسوف المثالي « لايعالج الفن كشكل من اشكال انعكاس العالم المادي وانما كتطور ذاتي للمفهوم . ان كنيسة هيجل وغيبياته تظهر في تعريفه لموضوع الفن فهو يقول ان اسمى الاشياء هي نزعة الفن الى ان يصور شكل الالة ثم ماهو الهي وروحي اذا لم يصور روح الله » .

والفن حسب هيجل أول شكل من اشكال تعرف الروح المطلق على ذاتها وهو أقل هذه الاشكال كمالا وهكذا يعتبر الفن خطوة اولى على الطريق ، طريق وعي الروح وبما انه يمثل الحلقة الاولى فانه اقل كمالا اذا ماقيس بلحظات تالية من لحظات وعي الروح ، لقد اعتبر هيجل الفن وجه من اوجه النشاط الروح ومهمة النشاط الروحي بما في ذلك الفن . جعل هذه الوحدة بين الذاتي والموضوعي مدركة بالوعي وهكذا يكون الفن حسب هيجل وسيلة تجعل الاستسلام للواقع استسلاما واعيا ولعل هيجل لم يعبر عن هذا الرأي في جميع مؤلفاته ويعد هيجل خلافا لشيلنغ الفن احط الاشكال التي يكشف فيها الروح عن ذاته ونتيجة لشكله يكون الفن مقيدا بمحتوى محدود ولا يستطيع الفن أن يأخذ أية حقيقة موضوعا له انه يتطلب حقائق فيها امكانية التحول الى صيغة محسوسة . ».

صحيح ان الفن ليس بمقدوره ان يتناول جميع الموضوعات والحقائق وصحيح انه يعتمد على الاختيار والانتقاء ولكنه يتناول دائرة واسعة جدا من اهتمامات الانسان .

لقد اكد هيجل ان التفكير الحسي هو من صفات الشعوب البدائية واكد ان الفن حالة تناسب الامم التي في طور البداوة في هذه النقطة بالذات يبرز فهم هيجل لعلاقة الانسان بالعالم المحيط به . ان الانسان القديم الذي ابدع روائع الفن لم يكن ليستطيع ذلك لولا طبيعة الظروف الحياتية المحيطة ، لولا طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بالعالم الخارجي « ان كاتب العصر الحديث يدخل في صراع مع مادة ابداعه ... وهذا الصراع كان مجهولا بالنسبة الى كاتب العصر القديم ، فلم تكن الذات تقابل الموضوع عند هو ميروس مثلا وذلك شبيه بحالة الطفل الذي يظل زمنا طويلا لايدرك حقيقة التقابل بين « الانا » و « اللا أنا » لقد ضعف الاحساس العضوي بالوحدة مع مرور الزمن ».

لقد طرأ على علاقة الانسان بالعالم الخارجي تبديل

كبير فانتقلت من البساطة الى التعقد والتركيب وتكاد تكون كل لحظة من الزمن خيطا يساهم في شبكة العلاقة بين الانسان وعالمه ان الطفل يميل الى الاستمتاع والمرح بقدر أكبر من البالغين تبعا لخلوه من المسؤولية وتمتعه بحرية مطلقة وبما كان الانسان القديم – الطفل يتمتع بخصائص فيزيولوجية تجعله أكثر ميلا الى الاقبال على العالم .

ان تعقد العلاقة بين الانسان والعالم المحيط به نتيجة للتطور الذي بلغه في شتى مجالات الحياة يضع قيدا على الفن ويحد من حرية الابداع الفني ذلك في اعتقادي مأثرة من مآثر هيجل ، ولكن يجب أن لاننسى أن المغالاة التي طبعت فكرة هيجل حول مصير الفن متأثرة الى حد كبير بالواقع الالماني البائس .

ان طبيعة العلاقة الجديدة بين الانسان والعالم المحيط به لا يمكن أن تودي بحياة الفن والجمال كما تصور الفيلسوف المثالي وان خلقت بعض العراقيل أمام الابداع الفني وثمة مأثرة هامة من مآثر هيجل هي تأكيده العلاقة الوثيقة بين الشكل والمحتوى في العمل الفني فالشكل مرتبط كل الارتباط بالمضمون واكتمال الشكل رهين باكتمال المضمون .

ان روائع الفن العالمي تثبت صحة هذه النظرة فهي تحتوي على المضمون الفني الناضج المعبر عنه بالشكل الذي يرقى الى درجة المحتوى واذن فان الجميل في الفن يفترض مضمونا بلغ حدا من النضج والوضوح مجسدا في شكل يناسب ذلك المضمون .

ان الفكرة أو الروح المطلق لم تبلغ حد الكمال والنضج دفعة واحدة وانما خضعت لتطور زمني اكسبها كل هذا الوضوح والتحدد .

وكانت في كل مرحلة من مراحل تطورها تتجسد في شكل من الاشكال ، ان تطور الفكرة باعتبارها الركيزة الاساسية في مفهوم الجميل – كما اعتقد – يقودنا الى تتبع مراحل تطور تجسيد الفكر بشكل فني تلك المراحل التي سماها هيجل انماط الفن .

تطور فكرة الجميل :

تعتبر الفكرة حسب راي هيجل المبدأ الاساسي في مفهوم الجميل لان العالم بما فيه من ظواهر مادية ومعنوية ما هو الا انعكاس للروح وهذه الفكرة أو الروح اتخذت أشكالا مختلفة تبعا لدرجة وضوحها ومعقوليتها لان الجمال انما هو « مركب من التصور – او الفكرة – والمادة المعطاة في الحس » .

المرحلة الرمزية هي مرحلة طفولة الفكرة فهي غامضة مبهمة وغير محددة لم تتضح بعد ونتيجة لذلك لم تستطع اخراج الشكل المناسب . في هذه المرحلة كانت الفكرة تعتسف الشكل فيترتب على ذلك علاقة تناحر وتناقض بين الشكل الخارجي والفكرة مرجعه عدم اكتمال الطبيعة رموزا تحاول تضخيمها مظاهر هذه المرحلة من تطور الفكرة تتضح في الفن الذي يأخذ بوحدة الوجود في الشرق القديم وفي الصين والهند ومصر .

وفي هذه المرحلة التي يتناقض فيها الشكل والمضمون لا يتحقق مفهوم الجميل كما يفترض ، ولكن لما كانت الفكرة نامية متطورة فانها لا تظل في نفس الدرجة من الغموض واللاتحدد فلا تلبث في المرحلة الكلاسيكية ان تبلغ قدرا من الكمال والنضج ولا تلبث أن تجد الشكل الخارجي المناسب ، تتجلى مظاهر هذه المرحلة الكلاسيكية في الفن اليوناني القديم وبشكل خاص في فن النحت . في هذه المرحلة تم التطابق المثالي بين الفكرة وتجسيدها الحسي وبذلك يتحقق المثل الاعلى للجمال حسب راي هيغل .

وتسير الفكرة في سلم التطور فتبلغ المرحلة الرومانسية في هذه المرحلة تبلغ الفكرة حدا كبيرا من التطور وتتفوق على الشكل ، ان المفهوم الجمالي في هذه المرحلة يصاب بعجز شكلي ناجم عن محدودية الشكل والمادة وقصورهما عن أن يستوعبا الفكرة والروح المتطورة .

ان طغيان الفكرة في المرحلة الكلاسيكية – على تجسيدها الحسي يسبب شحوب الجميل نفسه من حيث أن الجميل يفترض توازنا تاما بين الفكرة وتجسيدها الخارجي ولان الجميل تلك اللحظة الرائعة التي يتم فيها الانسجام الكامل بين الروحي والطبيعي .

اذن فان تطور الروح المطلق حسب هيجل يؤدي

الى اخراج أشكال مختلفة وهذه الاشكال نابعة تبعية مطلقة للفكرة ، ان الفكرة في جميع مراحل تطورها تفرض أشكالا معينة لتجسيدها حسب وضوحها واكتمالها أو غموضها وعدم تحددها .

ان هيجل يقول بشكل غير مباشر بثانوية الشكل وتبعيته للمحتوى وهنا يبرز فهم هيجل الصحيح لجوهر العمل الفني الاصيل ويترتب على ذلك « أن اشكال تطور الفن عند هيجل تابعة لتطور الفكرة لذا فان تغير الانواع والاجناس والاساليب في الفن لا يراه هيجل امرا عرضيا وانما عملية تتم حسب قانون على الرغم من أن هيجل يفهم قانونيتها بشكل مشوه » .

ان مراحل تطور الفكرة قد خلق اشكالا مختلفة للفن ولعل « مأثرة هيجل الكبرى هي في كونه يحاول أن يبني نظرة الفنون على أساس الدراسة التاريخية لكل أشكل من أشكال الفن » .

ان آراء هيجل حول تطور فكرة الجميل مطبوعة بطابع غيبي ميتافيزيقي وخاضعة بشكل أساسي للمنطق القبلي والتصور المجرد .

ان خطأ هيجل الاساسي يكمن في محاولته صب الفن بكل ما فيه من تناقض وتعقد في قالب مجرد .

واذن فاننا نخلص الى القول بأن مجمل فلسفة هيجل حول تطور فكرة الجميل ما هو الا صدى لفلسفته بشكل عام .

وان مسار فكرة الجميل يتبع خطا منحنيا يتحقق المفهوم الجمالي في منتصف هذا الخط الدائري .

الفن والاخـلاق :

لم يتمكن هيجل من أن يتخطى نهائيا نظرية كانط حول انعدام المصلحة في الفن وهكذا فان المنطق المثالي لم يمكن هيجل من تكوين فهم صحيح لجوهر الجمالي فيضطر في النهاية الى القول بأن الفن هو تصوير حسي للمنطق :

ان مهمة الفن في رأي هيجل ليست في الارشاد والتقويم والتطهير وانما في الكشف عن الحقيقة بشكل فني .

ان الفن يحمل غايته في ذاته وليس للغايات الاخرى علاقة بالمؤلف الفني .

يقول هيجل « يختلف اهتمام الفن عن الاهتمام العملي في أنه الشيء في استقلاله الحر بينما يهدم الاستعمال حين يستخدم للحصول منه على نفع أن هيجل بتحديده لمحتوى الفن وبتأكيده أن غاية الفن هي الكشف عن الحقيقة بصيغة حسية يفرق بشكل غير مباشر بين الجميل والاخلاقي .

ان الفن في جوهره « يتميز عن الخلق فاذا كان لا ينبغي له – أي للفن – ان يؤذي الاحساس الخلقي فانما يطلب منه ذلك باسم الجمال الذي يهدف اليه الفن ولكن انتاج الاثر الخلقي لا يصح أن يكون غاية الفن والا أخطأ الفن غايته الخاصة وأخطأ الغاية الخلقية معا فمضمون الفن فكرة الجمال مهما يكن مظهره الاجتماعي او العملي » .

لقد عرف كانط الجميل بأنه الشيء الذي يبهج دون غاية ونظر الى الجميل كفكرة مستقلة عن الاخلاق ولقد تابعه هيجل في هذا الفهم .

اننا نلاحظ تأثير كانط في موقف هيجل هذا وعلى الاخص في فكرته عن استقلال المبدأ الجمالي ولاغرضيته .

ان تأكيد هيجل على أن علاقة الانسان بالجمال علاقة تأملية مجردة وغير عملية تؤكد استقلال الجميل الا أن هيجل يختلف عن كانط في أنه أعطى للفن أهمية معرفية كبرى .

ان نظرة هيجل هذه نابعة من اعتقاده بالجمال المطلق ومن مجمل فلسفته المثالية التي تجرد الفن من علاقاته الانسانية .

ليس للفن من مجال حسب هيجل سوى الروح المطلق وهذا يتضمن عدم اعترافه بنفعية الجميل وبالتالي بدور الفن في حياة الانسان ، ان نظرية الجمال عند هيجل لاتهدف الى مساعدة الابداع الفني وانما الى معرفة طبيعية الجمال والفن غير أن هيجل يشير الى امكانية استخدام الفن كلعب خفيف كوسيلة للحصول على اللذة وتزجية الوقت لتحسين ظروف حياتنا ولكن الفن في هذه الحالة لا يبقى حرا وانما مقيدا بوظيفة ما .

الشروط الموضوعية لابداع الجمال :

لقد استطاع هيجل أن يبرز أهمية العمل وطابع الانتاج في فهم ماهية الجمالي وربط بين ازدهار الفن وطبيعة العمل وطريقة الانتاج .

لقد ازدهر الفن اليوناني في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية مواتية وتبعا لذلك فان انحطاط الفن يكمن في طبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع من المجتمعات ان الحالة البطولة هي الاساس الحقيقي – حسب رأي هيجل – لازدهار الفن المثالي ، لقدكانت كل مظاهر الحياة في العصر القديم تساعد على تطور متكامل للانتاج الادبي كما كان انتاج الاقدمين بحالة تسمح للفرد أن يظهر الحد الاقصى من استقلاله الذاتي ونشاطه فقد كان يعتمد على نفسه وهو لم يقطع بعد العلاقة الطبيعية بالآخرين وكان يسخر الطبيعة لخدمته ويعيش منسجما معها ، كانت علاقته بالطبيعة مباشرة تحمل طابعا شفافا ولم تكن قد اتخذت بعد طابع القهر والاجبار فتحضير الوسائل والحاجات لم يتفرعا الى هذه المجموعة الكبيرة من العمليات الصناعية نتيجة للانسجام بين الفرد والطبيعة ان تظهر الشخصية المستقلة الحرة مما اوجد جوا مشجعا للفن فقد كان العمل ذا طابع مرح ولم يكن الانسان يرى في الاشياء الخارجية ما هو غريب عنه بل ينظر اليها كمظهر لكماله الذاتي وغناه ومهارته وآنذاك لم تكن الاشياء قد اكتسبت طابع السلطة على الانسان فالابطال أنفسهم يذبحون العجول ويسكبون الخمر ويزينون العربة ويهيئون ادوات الاستعمال اليومية وهكذا كان هيجل يرى في طريقة انتاج الاقدمين أسباب ازدهار فنهم ثم ينتقل هيجل من تحليل الظروف الى تحليل العلاقات الحقوقية والاخلاقية والسياسية في العصر البطولي .

فلقد ساعدت تلك الدولة الديمقراطية – أي اليونان القديمة – على تربية أخلاق واضحة متكاملة وليس من قبيل الصدف أن تزدهر الفنون في ظل اليونان القديمة . ان هيجل يربط بشكل لا لبس فيه بين ازدهار الثقافة في اليونان القديمة وبين المثل الاعلى القائم على الحرية السياسية وحيوية الدولة وتجسيدها لافرادها .

يقارن هيجل الحالة البطولية بحالة عصرنا التي لا تتيح للفن فرصة الازدهار ففي الحالة المعاصرة لا يشعر الانسان بالحرية وتظهر تبعيته في طبيعة الانتاج الذي يتم في اطار التقسيم الواسع للعمل ويلاحظ هيجل أن عمل الفرد غير ذي قيمة اذا ما قيس بحركة المجتمع وعمله .

ان أعمال الناس اليوم تنقسم الى ما لا نهاية بحيث يأخذ كل فرد قسما بسيطا ، ان استقلال الفرد وحريته يبقى الى هذه الدرجة أو تلك محددين بالظروف والصدف ويكتسب نشاط الانسان طابع الضياع بعد أن يفقد استقلاله ومبادهته الحية لانه في كل مرة وسيلة لغيره وبذلك يفقد كماله الذاتي وكرامته ويتبدد الانسجام القديم في العلاقات بين الناس من جهة وبينهم وبين الطبيعة من جهة أخرى وينشأ الصراع الطبقي ويصبح المجتمع بالنسبة للفرد قوة ظالمة لا ترحم وفي هذا تكمن حقيقة العالم المعاصر المعادية للجمال وليس طابع العمل وحده هو الذي يجعل الانسان فاقدا حريته بل كل العلاقات الانسانية من حقوقية وأدبية وسياسية فالانسان ككائن سياسي يفقد صلته بالمجتمع وينصرف الى أعماله الشخصية وبقدر ما تأخذ العلاقات الانسانية طابعا مسردا ولا شخصيا تضمحل المادة الحياتية الملائمة للفن ويبقى طريق واحد الى بلوغ الحرية وهو أن يستغرق الانسان في ذاته .

● مصطفى العيسى ●

مراجع البحث :

١ – أسس علم الجمال ج ١ جماعة من الاساتذة السوفيات

٢ – الجمال في تفسيره الماركسي – ترجمة يوسف الحلاق – دمشق ٩٦٨

٣ – محاضرات الدكتور فؤاد مرعي لعام ١٩٨٠

٤ – في فلسفة الجمال – أميرة حلمي المطر – دار الثقافة – القاهرة ١٩٧٤

٥ – مدخل الى الآداب الاوربية – د. فؤاد مرعي – جامعة حلب

٦ – النقد الادبي الحديث – محمد غنيمي هلال

٧ – علم الجمال دني هويسمان – ترجمة ظافر الحسن – منشورات عويدات ١٩٧٥

٨ – في علم الجمال – هنري لوفافر

٩ – مجلة الفكر المعاصر – عدد خاص عن هيغل

١٠ – فكرة الجمال – هيغل – دار الطليعة – بيروت ١٩٧٨

١١ – مجلة الموقف الادبي – هيغل والمسألة الفنية – نايف بلوز – عدد ٩ سنة ٢ – ١٩٧٣ .

ويؤرقها حلم في منتصف الليل

قصة : محمد مرتاض - وهران -

« عندما أبارح المنزل طلقيها » ...

أسر أحمد بهذه العبارة الى والدته التي كانت قد حدثته في أمر زوجه بديعة ، دون أن تكون الكنة المسكينة تعلم قليلا أو كثيرا مما دار بين الام وولدها ...

كانت حزينة جدا .. وجهها شاحب عبوس .. شعرها الطويل تركته مشوشا على كتفيها دونما ترتيب، أو تمشيط ، أو تنظيم ... كيف تتزين بديعة وبعلها يرحل عنها غدا ؟. انها تسكن قرية القمرة بمسيردة ، وزوجها يعمل في فرنسا ، أو قل يقيم فيها ... ستبقى مع حماتها على الرغم من أن زواجها لم يمض عليه اكثر من شهر ... لقد سمعت الكثير عن شهور العسل التي يقضيها السعداء ... سمعت وهي ماتزال تتفتح على المراهقة من بعض الحضريات ، أن أجمل ليلة هي ليلة الزفاف ، وان شهر العسل خير من ألف شهر عزوبة مضت ... لكنها لم تلمس شيئا من هذا ... لم تشعر بالعاطفة الجياشة نحو زوجها ... أحست أن الفتور يخيم على حبه لها ... انه يقضي اليوم كله بين سيدي صالح وسوق الصبابنة ... لا يؤوب اليها الا والليل قد آذن بجحافله ... وفسرت ذلك بأنه يعود الى استحيائه من ابويه ... حاولت أن تتغلب على هواجسها ، ان تتجنب الصدام مع الحماة ... فكرت مليا في حالها ، ثم رأت قدرها المحتوم يجثم في وليجة هذه الحماة الفظة ... قرأت بعين متفتحة أنها لا تحبها ، لا ترغب فيها ، لا تريدها ... وسبح فكرها في الخيال البعيد ، والمناجاة الداخلية ، ثم طفقت تردد في مكمنها :

— حاش لله أن تكون حماتي من صنف العجائز اللائي نقلت القرية أخبارهن ... فأختي حبيبة طلقتها عمتها لانها انتقمت من أبي حين رأته أكبر شأنا من زوجها ، وتلك جارتنا رابحة أشبعت كنتها ضربا مبرحا، ثم أرسلتها الى والديها بدون ملابس ... وان أنا رحت أبحث عن السبب الاول الذي أدى الى هذه الاعمال الصبيانية ، لم أجد سوى الخيبة تملأ قلبي،وا لحسرة تتملك نفسي ... لماذا وقع الطلاق ؟.. ما سببه ؟.. بنات اليوم كما الفنا أن نسمع ، أم ... الحموات ؟.. أم ؟ ...

وفيما هي مستغرقة في هذا التأمل ، اذا زوجها يلج غرفته على غير ديدنه ، فليفي الشؤون سادرة في مقلتيها ... ينظر اليها بطرف بصر خاسيء ، يكاد يخف اليها ليسليها ، يستفسرها عما يكدر صفوها ... لكنه سرعان ما يتراجع ، كأنما جذب بقوة من خلفه .. أطال وقفته ازاء الباب يحدق اليها ، يتملاها ، من غير أن يدري السبب الذي حمله على الدخول اولا ، ثم هذا الشده الذي أصابه ، وكأنها نور الهي يقتبس منها

الضياء الهادي ... حملق اليها كالابله ، فبدت له في ثوب أنيق غير مبالغ في توشيته ، فوق جسم قد اكتمل نضجه بصدر ناهد ، عينين مسودتين زادهماالكحل البدوي حورا ، وطبع عليها الحاجبان الوطفاوان زينة وفتنة ...

مضى أحمد الى خارج المنزل دون أن يقول شيئا لبديعة ، فاكتفت هي أيضا بتشييعه من غير أن تنبس ببنت شفة ... أوشكت أن تناديه : أحمد ، أحمد ... وتصيح .. بيد أن الكلمة انحبست في دخيلتها ، ونادته في وليجتها أكثر من مرة ... ثم انفجرت باكية ... وفتحت جهاز المذياع واذا أغنية (يا قلبي يا مجروح) الحزينة تنبعث منه ، فاغلقته بعنف وعصبية .. انها تقتل زوجها بهذه الرومانسية المبالغ فيها ... من قال لها أنها ستطلق ؟... ان هي الا وساوس شيطان ، املاءات نفسية خاطئة التقدير ... فلتقم اذن ، ولتغسل وجهها ، ترجل شعرها ، تتعطر وتتزين لبعلها ... سيعود بعد قليل ويعتذر ، أو تستشف منه بعض ما ينبيء عن ذلك ... انها مستيقنة من أن زوجها لن يعبث بها كما فعل الآخرون بزوجاتهم ... وفي هذه الآونة ، جاءها صوت من الخارج صهصلق يأمرها :

— بديعة ، بديعة .

— لبيك سيدتي . هل من خدمة ؟.

— لا شيء ، لا شيء يا كنتي الغالية ... انكن بنات اليوم تجرين فقط وراء الرجال ، فاذا حصلتن عليهم ، طاب لكن الكسل والاتكال ... ان الغنم سيعود بها الراعي بعد قليل .. فاين المحلبة ؟ وأين نشاطك وحيوتك ؟... لقد كانت أمك دوما تفخر على الصواحب ، بأنك تستطيعين أن تحلبي ألف شاة في ساعة !!.. ونحن بحمد الله ليس لنا الا عشر هذا العدد ... فهلا أريتنا شطارتك ؟ ثم ... ثم العشاء لزوجك الذي كره أن يصيب طعامه من يدي وزوجه حاضرة .. جاء اليك من نحو ساعة ، علك أن تكوني قد هيأت له بعض ما يتخذ منه شطيرة قبل العشاء ، ولكنك لم تأبهي له أن تكترثي به ..!!

— معاذ الله يا سيدتي ... انما هو لم يكلمني بشأن الشطيرة ولا الفطيرة .. فقد دخل وخرج دون أن يكشف عما في نفسه . فهل أنا أجنبية عنه حتى لا يطلب مني ما يريد ؟..

— المرأة يجب أن تقرأ أسرار زوجها .. تتكهن عما يريده ، وتكون رهن اشارته كلما اعوزه شيء . يا ويحكن يا بنات اليوم ، هل احتفظنا نحن بالازواج عن طريق التغاضي واللامبالاة ؟..

— صدقت يا سيدتي ..!! (وناجت نفسها) .. لقد كانت عمتي فاضلة محقة حين قلت لها عنه : انه طيب جدا ، فهو لا يسأل حتى ما يأكله ... فقالت لي : بل هو أبله أوره ... والا ، فان الدجاج يقوقيء اذا احتاج للاكل أو الشرب ، والحمر تنهق طلبا للعلف ، والنعاج تثغو وتضرب بأرجلها ان رامت المرعى ...

لاحظت الحماة هينمة الكنة وغمغمتها فقالت لها :

— ماذا تنتظرين ؟.. ان الغنم على وشك الوصول ، والابن طفق أن يعود .. هيا ، هيا ..

انتهى كل شيء على ما يرام ، وها هي ذي جالسة في غرفتها المظلمة الا من شمعة يخبو نورها قليلا ، ثم تنفلت منها قطرة ، فيزداد ضوءها ، ويتألق نورها... وتأملت حالها الذي يشبه هذه الشمعة التي تحترق فقد تملكتها الشفقة عليها ، حتى وان كانت جمادا لا تعي ... انها شبيهة بالقلب المكلوم الذي اذا ضاقت به الارض بما رحبت ، راح يزود محاجر العيون بعبرات تكون بمثابة الغيث الذي يقع من السحب فيبددها ... أهكذا الحياة ..؟ ولادة ونشأة ونضج ، ثم زواج ؟... لم هذا الزواج الذي يجمع بين أجنبيين ؟...

٢

وبينا هي كذلك تحدث نفسها ، اذا خطوات تسمع ، واذا أحمد الزوج يلج الغرفة ، ويقبل مسرعا الى المنامة ، فتبسم في نفسها ، وتقف لتحييه ، فيرد التحية بأقبح منها ، ويتأوه ، ويتثاءب ، ثم يستسلم الى النوم ...

وتطفأ الانوار ، ويخلو الزوجان — على الوثيقة فقط — الى بعضهما بعضا ، دون أن يساعد ذلك على الالتئام . وكان أحمد شيخ هم ، وليس شابا مليئا بالحيوية ، أو عريسا الى جنب عروسة غضة جميلة... ويغمض عينيه كأنه نائم ، وتجرؤ بديعة لاول مرة على فتح الحديث معه ... لقد نصحت لها أمها بمداعبة زوجها وقراءة اسراره ، فقالت في لهجة حلوة رقيقة :

— أحمد .. أأنت متعب يا .. حبيبي ؟!.

فلم يعر حديثها أو سؤالها الذي يلين الصخور أي اهتمام ، فأعادت الكرة مغيرة الحديث :

ـ لا بأس عليك .. انك ستسافر بالسلامة ، وتعود ثمرا عامرا بالسلامة ... سأشتاق اليك كثيرا ، و... سيولد وراءك بلا ريب ولد ، يكون عزاء لي في وحدتي ، اذ سألفي فيه ملامحك ، وألمس فيه جبينك الفر !

وربتت على ظهره كطفل بريء :

ـ أحمد !.. لعن الفراق !.. كنت آمل أن نعيش لبعضنا على الاقل عاما ، ولكنها ارادة الاستعمار الذي كتب على البدو مثلنا الشقاء والبؤس ، ولم يفتح المجال الا في بلده ليمتص عروق وقوة شبابنا ...

ـ من فضلك يا بديعة ، اذا كنت حريصة على سلامتي وراحتي كما تزعمين ، فذريني للنوم ، دعيني استرح ، لانني مقبل على سفر طويل .. من .. غدى.

ـ حنانيك حبيبي .. لم أرد الا أن أعرب لك عن محبتي ، أبوح لك بمكنونات فؤادي ...

ـ شكرا على هذه العواطف !!..

ـ انه الحق يا عزيزي ... تيقن أن حياتي لن تستقي مصدرها الا من نبع حبك الفياض ، ولن تستمر الا على أمل أن تجتمع بك قريبا !

ـ طيب ... ايمكن لي أن أنام الآن ؟..

ـ بكل سرور يا حبي الاكبر ... نم ، فقد نام الورد ، وثمل الرحيق ، وجثمت الطير ... نم وكطفل صغير ، طبعت على خده قبلة ساخنة التقت بمادة مثلجة لم تؤثر فيه قليلا أو كثيرا ... فكان أن شعرت بأنها انما امام حجر صلد ، ازاء قلب من حديد لا يلين ... فارتدت عنه مسرعة ، وادارته ظهرها ، وغلبتها العبرات الحرى .. وراحت تتصور مختلف التصورات ، وتهيىء لنفسها مستقبلا حافا بالاشواك والصعوبات ، وتنظر الى حياتها نظرة متشائمة ملؤها الكمد واليأس ، ومن وراءها تسمع شخيرا ونخيرا لزوجها الهاجر بلا أسباب ... وبين اللحظة والاخرى يهمهم ويغمغم بعبارات لم تفهم منها شيئا ، بيد أنها أصخت السمع ، علها تجد في هذه العبارات مفتاحا سحريا تحل به الالغاز الكثيرة التي يخبئها لها مستقبلها ... واذا غمغمات الزوج تعود كرة أخرى ، وبالحرف الواحد قال :

ـ « طلقيها يا أمي عندما ابارح البيت »

فضربت على صدرها ، وارتعشت ارتعاشةأحست بها القطة الراقدة قرب نضيدتها ، فانتبهتمذعورة... ودون أن تدري ما تقول ، وجدت ثغرها الذي كان منذ أمد قصير بساما ضاحكا ، وقد تحول الى سعيرمستعر، لا تطفئه أمواه العالم جميعا ، ولو كان بعضها لبعض ظهيرا :

ـ رباه !.. ماذا اسمع ؟... أو ما يقوله النائم في منامه يعبر عما في نفسه حقيقة ؟.. غابت عن العالم بروحها ، وذهبت بعيدا في تفكيرها ، قبل أن تستيقظ على صوت أحمد الذي يكرر العبارة نفسها :

ـ طلقيها ......

ولم تدعه ليتمها ، فايقظته بقوة ، وهزته بكلتا يديها هزا فرت منه القطة التي ألفت أن ترقد في هناءة الى جنب الزوجين :

ـ أحمد ، أحمد ، أحمد ... أتحلم أه ...؟... ماذا تقول ؟... هل أنت واع ما تقول ؟.

ـ ما تعنين ؟... ألا تبرحين تقضين مضجعي بالتجسس حتى على خواطري الليلية ؟... لن أبيت معك الليلة ... دعيني أذهب الى حظيرة الدواب ، ولا أبقى معك في هذا المرقد الخانق ... ان الساعة تشير الى الواحدة ليلا ، وأنت لما تنامي بعد !!.

فقالت على استحياء :

ـ ابدا ، لقد نمت ،ولكني استيقظت على عبارتك التي أزالت عن عيني النوم ، ومنحتهما الارق المر ... فهل وعيت ما قلت ؟.

ـ أبدا .. ماذا قلت ؟.

ـ يا الهي .. حرام أن أعيد ما قلت .

ـ وأيم الله لتقولن ..

ـ لقد قلت ... لقد قلت ... قلت ...

ـ آه ... قلت ... لقد قلت ... ما فهمت شيئا ... ماذا قلت ؟.

ـ لقد قلت : طلقيها يا أمي عندما أبارح البيت ..

أ .. أه .. أ... في المنام نتحدث عن هذا ... لا ... لا ... مجرد حديث كنت قد نقلته عن ادريس.

ـ ادريس وشقيقه اللذين ودعا زوجيهما بالعصا ، وتركاهما تذكرانهما ، ولكن بأية ذكرى ؟...

ـ ......

٣

مع زقزقة العصافير ، وتغريد العناديل ، استيقظ أحمد نشيطا كأنه لم يؤرق طوال ليله ، أما زوجه المسكينة ، فقد استيقظت على غير عادتها : ثقيلة الخطا ، متثائبة ، يؤثر على مشيتها الارتخاء والرتابة .. وهاهي ذي تتجه صوب حماتها لتصبحها ، فترد عليها بشيء من الفتور :

ـ صباح الخير .. اليك الشياه فاحتلبيها ...

وحتى وهي تتلوى من الالم الذي حطم قلبها ، انصرفت ببسمة متكلفة ، وأدت عملها الثقيل ، على

أحسن صورة ... في حين كانت الام وابنها يتحادثان في شيء لا تعرف عنه سرا ، وقد اتخذا لهما مكانا قصيا من بديعة ...

– هاهو ذا ما حلبته يا سيدتي ...

احكم أحمد حزام حقيبته جيدا قبل أن يعود الى والدته التي قبلها بحرارة ، واحنى شفتيه على رأس أبيه ليودعه باحترام ، ثم أومأ الى بديعة أن تلحق به الى خارج الدار ...

تحت ظلال اللوز والتين ، وبين أفنانه المتشابكة ، أمسك بيد بديعة ، وطفق يهذي بشيء لم تنتبه له مطلقا ، أو قل لم تفهم منه شيئا ، وان كانت قداطمأنت اليه ، واعاد اليها الثقة قبل أن يفارقها ..

شيعته بدموع حرى ، وبوقفة حيرى ، أنستها انها استغرقت قرابة الساعة ...

عادت الى غرفتها فاستقلت ، ثم عن لها أن تنزع سوارين كانا في معصميها .. انها لم تعد بحاجة الى زينة ، بعد أن سافر الذي تتزين له .. فتحت الدولاب، فاذا هي تكاد تصعق وسألت نفسها عبثا :

– ماذا ؟... أين العقد ؟... السلسلة ؟... سائر الاساور ؟... خاتم الخطوبة ؟... و ...؟ ....

هرعت الى حماتها صائحة :

– سيدتي ... انها الكارثة ... الطامة ...

– اللهم اسمعنا خيرا يا رب .. ماذا يا بديعة ؟..

– لا أكاد أصدق ... لقد سرقت مجوهراتي كلها ... ماذا أصنع يا ربي ؟.. ماذا أفعل ؟... رأسمالي ذهب .. صداقي اندثر .. مهري سرق ..

كانت تقذف بهذه العبارات متلاحقة ، والدموع منسكبة مدرارا من عينيها ، في الوقت الذي أجابتها فيه الحماة ببرودة تامة :

– من يسرقك يا بديعة ؟... ابحثي جيدا ، فعسى ان تكون قد اختبأت بين ملابسك ..

– قولي اختفت حيث لا تظهر تارة أخرى الا بالحق ... قولي أخذتها انت ... من يدخل الى غرفتي، ويتجرأ على فتح دولابي ألا تكوني أنت ؟...

– أتتهمينني بالسرقة ياقليلة الادب ؟.. ان مجوهراتك أخذها ولدي معه .. أفهمت ؟... أخذها حتى لا تبقى آصرة تربطك به أو بذكرى زواجه منك ..

أمام هذا التحدي والسب ، لم تلف بديعة مندوحة عن اللجوء الى والديها ، بيد أنها ما تكاد تدخل عليهما حتى يرجعاها الى بيتها الجديد .. وكان لابد أن يحتدم النقاش بين الاسرتين ، قالت والدة الكنة للحماة :

– ان ابنتي لم تأتكم سائلة أو متسولة ... لم أدخلها عليكم من تلقاء نفسي ... انما خطبتم وطلبتم فوافقنا ... وان بدا لكم أن تغيروا اختياركم أو سول لكم الشيطان امرأة أخرى ، فان بيت والديها ينتظرها ليتلقاها بحنان ... انما ذلك لن يتم الا بقرار القاضي .. فزمان العبث قد انتهى ... ومضى معه قانون الغاب، حين كانت « الجماعة » تزوج وتطلق ...

وكان لابد من أن تكون الحماة أهدأ قليلا ، حتى تموه الاشياء بغشاء من الكذب والبهتان ، ولكنه صالح لتطييب الخواطر في مثل هذه المواقف ، فقالت لها تطمئنها :

– ان ابنتك خرجت من تلقاء نفسها ... اننا لن نطرد كنة تزوجناها عن رضى ... والا ، فهل عرفتم عنا مطلقين أو مبدلين النساء ؟..

٤

لم يمض اسبوع حتى كانت بديعة في بيت والديها، وقد طردت شر طردة .. بدون ثياب ، ولا ذهب ، أو حتى عشر من المهر !!.. وكان بديهيا الا ترجع هذه المرة الى الجحيم ..

في بيئتها الاولى استأنفت نشاطها البدوي ، حيث كانت ترى وهي غادية الى حقول القمح لتحصد سنابله التي استحصدت في « وادي عياش » وتردد أغنية حزينة فولكلورية مع والدتها ، وكان الذي يسمع صوتها الرخيم الذي حوله الحزن الى أجش متقطع النبرات ، يتذكر أغنية لورد زورث التي توصل الى نظمها ، بعد تأمله في بدوية حاصدة ...

كانت كلما خلت الى نفسها أعادت الى ذهنها أغنية حفظتها ، وكانت تود أن لو عاش معها من تهواه وتهفو اليه ... يطلبها فتتابى وتتصنع العياء والاجهاد لانها حامل ، ويطير هذا الزوج فرحا ، ثم يخف اليها ويعانقها ، والدنيا لا تسعه من الحبور والنعيم ...

وتكر الايام سراعا قبل أن يجيئها المخاض .. لقد أثمرت عشرتها مع أحمد ولدا ، أبكاها أكثر مما أفرحها .. ومع ذلك فقد رأت في ولادته خيرا ويمنا ... لعله يكون سببا في صلة جديدة بينها وبين ابيه ...

كتبت الى والده تخبره الخبر ، الا أنه ظل أصم لا يسمع ، ابكم لا يحير جوابا .. واحتفلت بوليدها خير احتفال ، وكفلته الى أن استوى على سوقه ، ووالده لم يحن اليه ولا اليها ، بل أرسل التوكيل من المهاجر لتطلق بديعة ،وصدق بذلك الحلم الذي أرقها من نحو عامين : « طلقيها .... »

حسيس الإلهام!!

شعر : محمد حسن فقي

ذهبوا كلهم .. فأين أقاموا — فعليهم رغم التنائي السلام !

التقى الذي استقام على النهـ — ـج . تولى .. ولم يفره الحمام !

والشقي الذي تنكب لم ينـ — ـج .. فولى وراغ عنه الاثام !

لم يفته شيخ .. وان جاوز القر — ن .. ولم ينج من يديه غلام !

* * *

نشتكي ههنا الزحام .. وقد يطـ — ـوى المنايا هناك هذا الزحام !

ليت شعري .. متى وأين سأمضي — لارى غايتي .. ويشفى الهيام !

قد شجاني الظلام هذا . وما أد — رى متى ينجلي لعيني الظلام ؟!

فأبي غاب عني .. وأبنائي — وأمي ولا رؤى أو كلام

كم تمنيت ومضة تبصر العيـ — ـن بها .. ما تمنت الاحلام !

فلعلي أن أستبين رشادي — من ضلالي .. وتنطوي الاوهام !

* * *

يا هواي الذي تولى برهطي — للمدى المنتأي الذي لا يرام !

هل ترى أو يرون ما جنت الفر — قة .. مما تنحل منه العظام ؟!

ليس لي أو لهم خيار .. فما أعـ — ـظم من في يديه منا الزمام !

كل ما أرتجيه أن أرد المو — رد صفوا .. وأن يطيب المقام !

بعد صحو بادي العبوس رهيب — عز فيه على عيوني المنام !

* * *

يا سلاما تخيلت فيه روحي — أنه جنة رعاها الغمام !

رشها بالندى .. فما صوحتها — بل رعتها - على المدى - الايام !

أتراني أغشاك بعد ارتحائي   من هنا .. أم يذودني الضرغام ؟!

طالما حاول افتراسي .. وحاول   ت فرارا .. فردني الاجرام !

فاذا بي طعامه .. كلما لج به   الجوع .. قال أين الطعام !

أنا هذا فقد رضعت من الاثـ   ـم لبانا يعز عنه الفطام !

يتراءى الحلال لي فأناديـ   ـه .. فما يستجيب الا الحرام

فاذا ما هويت للدرك أجهشـ   ـت .. وما لي في الدرك الا الاوام !

أشتهي أن أكون خلقا سويا   فيحول الهوى ويأبى الغرام !

فأقاسي من التذبذب والقهـ   ـر .. ويمضي بالخسر مني الملام !

* * *

أي قلب هذا ؟! يحن الى الطهـ   ـر .. فتلوي عنانه الآثام !

في لهيب الضرام يحيا .. ويا بؤ   س حياة يشب فيها الضرام !

فلهذا أخشى المصير بما كا   ن .. فلي منه سوءة واتهام !

وأناجيه خائفا .. فهو لولا   رحمة تحتويه .. خطب جسام !

ما أخاف الردى .. ولا أجتويه   فهو روح تشفى به الاسقام !

انما الخوف أن أصير الى الرجـ   ـعى بوجه يضج منه اللثام !!

ولقد يكرم الجماد .. فما يجـ   ـني كمثلي .. وتكرم الانعام !

* * *

يا هواي الذي تولى .. لقد رفت   بسمعي فهزت الانغام !

قد تخيلت أنها من حماكم   آتيات .. وانهن مدام !

ليس فيها من الاثام ولا الغو   ل .. وفيها رحيقها والخزام !

أنا منها من بعد يأس ورعب   آمل أنني غدا لا أضام !

حيث أنتم .. فانني سوف أغدو   معكم .. أيها الرفاق الكرام !

هكذا نبأ الخبير بما الـ   ـقى .. حسيبا يزفه الالهام !

البلبل المفجوع

شعر: إسماعيل عدره

الاهداء :

الى الشاعر العربي اسماعيل عامود ، دمعة سخية من عيون أحبتك ومن قلوب عاهدت معك الجراح !

رحلت ، فيانبعا من الطهر يرحل ... وجدت بفيض الروح ، فالبشر يأفل ،

وقد كنت للازهار روضا منورا ... فجفت عيون الروض ، فالليل يسدل!

فمن يمنح الازهار بعدك عطرها ... وهل لابي الازهار بعدك مأمل ؟؟

ومن ذا الذي يحبو النفوس أمانها ... اذ الموت يقسو ، والجراحات تذهل ؟!

فلله قلب أسكت الموت خفقه ... وقد كان معطاء ، مدى العمر يعمل ،

أأم الفدا ، لو يرحم الموت فتية ... لذابت صخور الموت ، حين توسلوا

أأم الفدا ، لو يسمع الموت شاديا ... يغني بديع الشعر ، ماجف منهل ،

ستبقين يا أختاه روحا رفيقة ... لها في جنان الله روض ومنزل !

سلمية : أول تشرين الثاني ١٩٨٠ م :

● اسماعيل عدره

أم الفداء : هي المرحومة المربية عائشة أحمد اللحام حرم اسماعيل عامود التي توفاها الله صباح يوم الخميس ٧ ذو الحجة ١٤٠٠ هـ – ١٦ تشرين الاول ١٩٨٠م في دمشق .

رسول الحب..

شعر: عبد القادر الأسود

هبت علينـا في الصباح شمول ... كسلى تهادى نحونا وتميل

مرت بمبـج فاستحال جفافها ... رطبا كأن رداءهـا مبلول

يا ريح مالك جئتنـا مذهولة ... هـل للغرام على الرياح سبيل

أرأيت سعدى أم مررت بدارها ... حتى اعتراك توله وذهـول

بالله ان جئت العشية دارها ... رقي فانك للحبيب رسول

وتقدمي منهـا برفق وانحني ... وأبكي لديهـا والبكاء قليل

فاذا رأيت بأنهـا قد أطرقت ... حزني وأمسي للحديث قبول

كفي الدموع ولا تزيدي حزنها ... واستعطفيها فالحديث طويل

قولي لهـا عندي سؤال محرج ... فعساك تصغي فالسؤال جليل

مـا ذنب صب قلبه متفطر ... شوقا اليك وجسمه معلول

فبأي ذنب تتركيه معذبا ... وبأي شرع يسأل المقتول

ان كان ذنبا أن أحبك مخلصا ... لا ترحميه لانه المسؤول

أرمناز : عبد القادر الاسود

الشاعر المضيع

شعر: أنور الجندي

الى صديقي الشاعر المرحوم محمد الحريري

أبكيك بالدم ، والبكاء قليل
والدمع في الخطب الجليل ، جليل

وعلام لا أبكي ، وأنت مضيع
مثلي ، وعمرك غربة ، وذهول

ولكم شكوت الي همك متعبا
ولكم سعيت ، فعقك المأمول

واعود بالذكرى ، فيقتلني الاسى
شجنا ، وقلبي موجع ، مشغول

أيام أسمعك الغناء ، فينتشي
قلق ، وينعم بالهدوء عليل

وترق أغنية ، ويجهش عاشق
والكأس منتجع لنا ، ومقيل

وتحس انك في الحياة مشرد
وان ، وصدرك مرهق ، مغلول

تتواثب الشهقات في جنباته
ويهده التأويل ، والتعليل

أمحمد ، والليل يشهد أنني
عان وحسي وحده المسؤول

أرنو الى دنياي ، وهي حفية
بالاغبياء ، وللغباء دليل

ومراهقين ، تشبثوا بهرائهم
وهراؤهم ، كوجودهم مملول

عابوا على النسر المحلق كبره
والنسر في حضن السماء نزيل

وتوهموا أن السفاهة سلم
للامنيات ، ووهمهم تدجيل

لغة ، كأيام الشقاء ، مريضة
ومقاطع ، يعيا بها التأويل

لا يخجلون ، وكيف يخجل آثم … باع المروءة ، والكريم خجول

يامن تركت لي الحياة مآتماً … عبء الحياة ، كما علمت ، ثقيل

أنا يا صديقي ، شاعر ألف السرى … ليلا ، وحلمي ضائع ، مخذول

أفنيت عمري في السراب معذباً … ومضيت ، ينهكني اسى مجهول

ووددت ، لو أحظى بقبري ناعما … والقبر عندي ، صاحب ، وخليل

هذي حياتي أدمع ، ومرارة … وتنهد ، وتأوه ، وعويل

يا أيها الوتر الجريح ، كآبة … هل يستفيق مجرح ، مكبول

ماذا وراء الموت ، كيف لقيته … والموت في عرف الاحبة ، غول

والقبر ، قل لي ، كيف رحت تضمه … شغفا ، وقبرك ، بالردى مأهول

اني ليحزنني ، رقادك في الثرى … والمرجفون شراذم ، وفلول

الطاعنون صفاقة ، ونذالة … والاوفياء ، وودهم تضليل

همجرحوك بنقدهم ، وسهامهم … وعدوا عليك ، وسيفهم مغلول

كذب الفواة ، الآثمون ، وجلهم … خدم ، وهل عرف الحياء عميل

أمحمد ، والليل يسحب ذيله … مللا ، أأنت من الرفاق ملول

قم من ضريحك ، فالاحبة حشد … والادمع الحرى ، عليك سيول

خذني اليك ، فان عمري ليلة … ظلماء ، يغمرها ضنى ، ونحول

ويذيب قلبي ، أن أراك ممددا … والشامتون ، منافق ، ودخيل

هيهات يسعدني الزمان هنيهة … وأمام عيني ، نعشك المحمول

يا ساهر العينين ، أرهقه الدجى		سهدا ، أيسمع قلبك المتبول
قل للهجين مخضبا ، ومزوقا		مات الهزبر ، واطفىء القنديل
وتبرج العصفور ، يحسب أنه		ملك الطيور ، وسيفها المسلول
وهناك ، في السهل الفسيح أراقم		مسعورة ، وخنافس ، وعجول
خرف الزمان ، فلا تسله تعقلا		أيلام دهر ، أحمق ، مخبول

*	*	*

أمحمد ، قل للغواة ، ورهطهم		لايحسن الطعن الاصيل ، ذليل
نحن السيوف المرهفات ، وشعرنا		نغم ، على شفة الزمان جميل
غنت به الاجيال ، فارتعش الهوى		ثملا ، وطوق خصره جبريل

*	*	*

مهلا صديقي ، لاتلمني باكيا		حزني عليك ، وان عتبت ، طويل
أنا ان بكيت ، بكيت فيك قصيدة		هتف الفرات لرجعها ، والنيل
عربية النفحات تعبق بالشذا		ألقا ، فيسكر منحنى ، ونخيل
ذوبتها قبلا ، فذابت لوعة		وكذا يطيب على الفم التقبيل
أتراك تسألني ، وأنت موسد		عما أقول ، وكيف ، كيف أقول
مات الكلام ، فلا تسلني همسة		فأنا ، وأنت ، مشرد ، وقتيل

السلمية ٢٠ – ٩ – ١٩٨٠

● أنور الجندي

سألت كل شيء

شعر : ديب عنقود

ساءلت عنك الطيف والافقا — والريح والانسام والعبقا
والامس والذكرى بما هتفت — والقلب في روحي بما خفقا
والنعميات السحر من شفة — يوما نفحت العشق والالقا
هذي رياح الوجد تحملني — بحب عطرك كالصدى مزقا
تغتالني أيدي الحنين اذا — خطر المحيا وانجلى ورقا
فأعدت لي حلما وعدت الى — يوم كلانا سر أو عشقا
غازلت طيفك حيث راودني — في كل ليل عاد واسترقا
ساءلت عنك رسائلا سكنت — قلبا أجل الحب واعتنقا
فغدوت لي وطنا اساكنه — والوعد فيه وفيك قد صدقا
يا للحنين اليك عذبني — وغواك مني الصفو قد سرقا
ولقد طويت هواك في كبدي — لن ينتهي ما دام قد بسقا
وجعلت من عينك متكأ — يا أنت جل الله ما خلقا
سافرت عمري عند سحرهما — لم أدر أن القلب قد سبقا
ان مقلتي حلمت بغفوتها — كنت الاخيرة تجلب الارقا
ان شئت فابتعدي أو اقتربي — فالطيف يكفيني بما غدقا
سنظل مهما الدهر فرقنا — قلبان في الايام ما افترقا

سرغايا ـ ديب عنقود

دور رفاعة الطهطاوي في تطوير النثر العربي الحديث

زياد كامل - دمشق

النثر العربي قبل النهضة وقبل رفاعة الطهطاوي :

قبل النهضة العربية الحديثة وقبل رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) امام نهضتنا اللامدافع وشيخها غير المنازع وصل نثرنا العربي الى مرحلة الاحتضار اذ أصيب بوهن وسقم شديدين بالغبن وبعقم خطير مستفحل في قالبه ومادته على السواء ، بل لئن شئت الدقة أكثر فقل انه ابتلي بشلل تام خطير دب في أوصاله ، في أسلوبه وأفكاره ، شكله ومضمونه ، اذ أغرق الكتاب في التقليد والاجترار والتعقيد والابهام والغموض والتكلف والزركشة والتزيين ، عباراتهم تتهالك عيا وسخفا ، جملهم ركيكة وتراكيبهم واهنة ومعانيهم غثة وافكارهم ضحلة تافهة وأساليبهم رثة مهلهلة تقيدها المحسنات وفنون البديع المتصيدة تصيدا عجيبا ، ومن كان منهم على حظ من الادب أو يدعيه كان غاية ما تفتقت عنه عبقريته المدعاة أن يؤلف المقامات وليته يحسن صنعا أو يتقن عملا فما يأتي به لبراء من فن المقامات وماهو الا تصحيف وتشويه لهذا الفن ولا يمت له ولا للادب بعامته بأية صلة كانت لا من قريب ولا من بعيد غاية ما فيه عبارات مقتصبة وأساليب مسروقة من الاولين تبدو ظاهرة للعيان مع التواء في العبارة وتكلف في السجع وحشد زاخر من المحسنات ويخاطبك كاتبه من وراء جدر سميكة لا تستبين لك نفسه ولا أحاسيسه .

ولئن حاول أحدهم نبذ التكلف والركاكة والخروج عن التنميق والتزيين فليته ما فعل هذا ، لانه يقع في هوة جديدة سحقية لاقرار لها ، اذ يجد أن عباراته المسجعة المنمقة اسلم وأقوى وأجمل صياغة من عباراته التي يزعمها مرسلة ، اذ غلبت عليها التركية والعامية والاعجمية الاوربية لا في الفاظها فحسب والا لهان ذلك انما في طريقة تأليف الجمل وتركيبها وصياغتها .

ومما يؤسف له أن هذا الشلل الخطير والعقم المستفحل عم نثرنا العربي كله ، ففي مصر نقرأ نصا من مقامة لواحد من عمد أدباء عصره هو الشيخ الدمياطي جاء فيه (هاجت لي دواعي الاشواق العذرية وعاجت بي لواعج الاتواق الفكرية الى ورود حمى مصر المعزية البديعة ذات المشاهد الحسنة والمعاهد الرفيعة) (١) ، ونقرأ رثاء لهذا المتفاصح الدعي من الجبرتي فنجد فيه مصداقا لقول من قال (مات أفضل النبلاء وأنبل الفضلاء بلبل دوحة الفصاحة وغريدها من انحازت له بدائعها طريفها وتلبدها)(٢) ومن نجوم الادب المتألقة المشعة بدمشق عصر ذاك الشيخ خليل الدمشقي ونقرأ له مقطعا من رسالة جاء فيها (أهدي السلام العاطر باكره السلام الماطر والتحايا المتأرجة النفحات الساطعة اللمحات الشامخة الشميم الناشئة عن خالص صميم)(٣) ، وهاك نصا من العراق لاديب

لامع بعصره هو أبو الشفاء الالوسي يصف فيه نساء الاستانة فيقول (وفيها من النسوان ما يخيل أنهن من حور الجنان وفيهم من عادات نساء الاعرب انهن يبرزن الى الازقة بمجرد نقاب وقد حققت أن منهن من لاتخرج من بيتها الا الى الحمام)(٤) ، الى آخر ما في هذاالهراء من سفاسف منفرة تثير الضحك ملء الشدقين، واليك رسالة بعثها شريف مكة الى مدير الحدود المصرية العام (وصل الينا كتابك وفهمنا كامل ما حواه خطابك فأوجب ذلك عندنا السرور ومزيد الود والحبور)(٥) ، ومن نابلس نقرأ لك نصا من تقرير رفعه أعيان المدينة وفيهم المفتي والشيخ ورجل الدين والعلم والادب ، الى ابراهيم باشا بن محمد علي سنة ١٨٤٠ يشكون فيه من تصرف الوالي (المعروض للاعتاب السنية السر عسكرية صانها رب البرية ، يعرض عبيدكم بخصوص أحمد آغا ، حضر لعنده رجل يسمى علي مرعشلي من سباهية الاسلامبول وعند حضوره أظهر الافراح بضرب الفتاش ببيته وضرب البارود فيه ليلا ونهارا ومن كون ذلك مخالفا للارادة الشريفة وجب علينا تقديم الاعراض لاعتاب دولتكم لاجل يحيط العلم الشريف أن هذه الامور ما من أحد من أهالي نابلس داخلا وخارجا موافق المذكور (٦) ، وواضح أن هذه النصوص منها نثر ديواني ومنها نثر فني أدبي ومنها ما يسير على نهج السجع والبديع وفن المقامة ومنها ما ينهج منهج الترسل ولا أظن أني بحاجة لادل القارىء على ما في هذه النصوص من ركاكة واسفاف وتكلف ذميم مقيت مرذول وتهافت بالعبارة وضحالة وتفاهة ساذجة في الافكار والمعاني واستعجام في الالفاظ عدا العامية الفاحشة ، كما لست بحاجة لالفت نظره الى مواقع المحسنات وفنون البديع التي جدا أصحاب هذه النصوص في التنقيب عنها .

أما عن عقم وجمود مضمون النثر العربي ومادته بهذه الفترة السوداء من تاريخ أدبنا العربي فحدث عنه ولا حرج حيث أغرق الكتاب والمؤلفون أو على الاصح مدعو الكتابة والتأليف في وضع الشروح والحواشي والتلخيصات والتقريرات على المتون العقيم التي يطالعونها ، أو ينظمون في اللغة والشريعة ، واذا حاول أحدهم أن يشذ عن اقرانه فيكتب بغير ذلك فيجد نفسه في هوة أخرى اذ تمتزج العلوم والمعارف التي يزعم التأليف بها بالخرافات والترهات والاباطيل الفاسدة ، فالشرقاوي مثلا ادعى التأليف بالتاريخ وليته ما حاول اذ مزج الحقائق التاريخية بالاساطير والخرافات الجوفاء وفسر التاريخ على منطق الجاهل المتعفن بعقله وبفكره المؤمن بالسحر والخوارق والخرافات ، فذكر في تحفة الناظرين أن أقصرالفراعنة عمره ٢٠٠ سنة وأطولهم عمر ٦٠٠ وان فرعون موسى كان قصير القامة طوله ٦ أشبار وطول لحيته ٧ أشبار وحكم مصر ا..٥ سنة(٧) .

والمهم في كل هذا أن كل من أدعوا التأليف بهذه المرحلة وقبل النهضة وشيخها رفاعة بل حتى بعض معاصريه انفسهم لم يخرجوا عن حيز التقليد والاجترار والادب الضحل التافه الغث الهابط في قالبه ومادته وعن الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو وعلومهما ومزجوا العلوم الاخرى التي ادعوا التأليف بها بخرافات وسفاسف مرذولة ، وكأن لا معارف ولا علوم الا معارف وعلوم السلف وكأن حياة الانسان لا تستقيم الا بعلمي اللغة والشريعة وكأن الفكر الانساني لاينهض الا بهذين العلمين وكأن الادب العربي لم يعرف غير المقامات والرسائل الادبية والاخوانية وكأن العلوم التي زعموا البحث بها وليدة الاساطير والاوهام ، ويكفيك دليل على عقم وسوء نثر اولئك الكتاب بمادته ومضونه ان تطالع الكتب التي كانوا يطالعونها ويتزودون منها بزادهم الثقافي والفكري والعلمي ومنها جمع الجوامع والازهرية في النحو ومختصر السعد وكتب الحديث والسنة وصحيح البخاري وشرح الاسيوطي على الخلاصة وقطر الندى وبل الصدى وشرحي الاشموني وابن عقيل على الفية ابن مالك وسواها من الغث الضحل التافه العقيم قالبا ومادة ، فواضح أن كل هذه المصنفات ليست الا صورة باهتة زيفاء مشوهة من تراثنا العربي الاصيل اذ لا تعرض منه الا جانبا مشوها من النحو والتفسير والفقه والحديث واللغة تلك العلوم التي اصطلحوا عليها بمصطلح المعقول والمنقول فكأن العرب لم يشغلوا انفسهم الا بهذه العلوم والمعارف وكأن تراثنا الضخم لم ينجب ابن سلام وابن قتيبة والجاحظ والمعري وابن رشد وابن طفيل والغزالي وابن خلدون وغيرهم من عمالقة الفكر العربي العظام ، وليت هذا فحسب بل ان هذه المتون أو الكتب كانت مقررة لتدرس للطلبة في أكبر دار للعلم في الشرق كله آنذاك وهو الازهر ، ولم يكن عالم الازهر الا الحافظ لتلك المتون العقيم العارف بشروحها وحواشيها او من يضيف الشروح والحواشي والتقريرات والتلخيصات الاخرى لها لتبتلي بها المكتبة العربية شر البلاء .

فاذا كانت تلك المتون والكتب الضحلة الغثة العقيم هي الزاد الزاد الثقافي والفكري والعلمي الوحيد للطلبة في الازهر وهو أكبر منارة للعلم في الشرق العربي كله يومذاك ، وهي المنهل الوحيد للمثقفين العرب ، فما بالك بالمحصلة الثقافية والفكرية والعلمية التي سيخرج منها القارئون لتلك المتون ، وان كان عالم الازهر هو الحافظ لتلك الكتب العارف بشروحها وحواشيها فما قولك ببقية الناس ، وماذا تتوقع أن تكون مؤلفات مدعي الثقافة والتأليف والبحث وهم لا يخرجون في فكرهم وثقافاتهم وعلومهم عن فلك هذه الكتب الهابطة التافهة ، لابد أنهم سيتحفونا بنتاج أشد فقرا وعمقا وجمودا وغثاثة وسذاجة من الاصل المنحول عنه أو المنهل منه .

نثر رفاعة ودوره في تطوير النثر العربي الحديث:

ولئن وفدت الى نثر الطهطاوي ستجده يمثل صفحة مشرقة ناصعة متألقة في تاريخ نثرنا العربي الحديث بالقياس الى المرحلة الزمنية التي يمثلها اذ ستراه يقف على النقيض تماما من الكتاب الآخرين في جل نثره وليس به كله ، حيث بذل جهودا جبارة جسيمة مضنية بحق عسيرة للارتقاء بالنثر العربي بعيدا عن ذلك التقليد الموروث العقيم التافه الغث الذي داب عليه الكتبة الآخرون ، والوصول بهذا النثر الى مرحلة القوة والصحة والنضج والغنى والاصالة والابتكار والوضوح والدقة والترسل والطواعية والبساطة والسلاسة ونصاعة الاسلوب وجماله وشدة أسره وقوة العبارة ومتانة التركيب .

آ ـ في مضمون النثر ومادته :

يلاحظ القارىء ههنا بجلاء لا يرتقي الشك اليه قط ان رفاعة قد خرج بنثره أو بجل نثره عن ذلك التقليد الموروث الضحل الذي اعتمده الكتاب في عصره او ادعياء الكتابة آنذاك ، من رسائل اخوانية أو أدبية ومقامات هابطة مشوهة وبحوث غثة ساذجة مرذولة مجترة في اللغة والشريعة ، وأطل بنثرنا الحديث ولغتنا العربية معه على آفاق جديدة لم تكن له من قبل ، آفاق الحياة العصرية والحضارة الجديدة والمدينية الحديثة ، وأثرى بكتبه ومؤلفاته المكتبة العربية ، ببحوثها ومواضيعها الحية القيمة التي تقدم لقارئها وجبات علمية وثقافية وفكرية دسمة غنية متنوعة فيكتب في علم الاجتماع والفكر الاجتماعي فيحدثك عن حتمية التطور الاجتماعي وعن المرأة ويرفع ولاول مرة في التاريخ العربي الحديث وقبل أي رجل آخر لواء الدعوة لتحرير المرأة العربية وفتح أبواب العلم والعمل لها ويتناول قضية الحجاب رغم حساسيتها وشدة تحرج الكتبة منها ، وعن موضوع أهل الذمة في المجتمع الاسلامي العربي ويعالج بعض الظواهر الاجتماعية المرضية ويكتب في الفكر التربوي فيحدثك عن أهمية التربية ودورها في اطراد التقدم والنمو الحضاري وعن مراحل التعليم وأصوله وأسسه ومناهجه ويكتب في الفكر التعليمي فيبحث في أهمية العلم والعلماء ودور العلم الحتمي في رقي الشعوب وتمدنها ويتناول العديد من المسائل والقضايا العلمية كالتخصص العلمي وتفرغ العلماء وتشجيعهم بالحوافز المادية والمعنوية ومراكز الابحاث والمؤسسات العلمية الحديثة ، ويكتب في الفلسفة فيحدثك عن المنطق والتصور المركب والبسيط والقياس والقضية الكلية والجزئية والمركبة والبسيطة والمقولات العشر المنسوبة لارسطو ، ويكتب في الجغرافيا فيتحدث عن كروية الارض والعالم الجديد ويالها من حقيقة نراها اليوم جد تافهة بيد أن أهميتها تنبع من الزمن الذي جاء فيه كما يتناول تقسيم العالم الى قارات وأقاليم وتقسيم الجغرافيا الى طبيعية وبشرية وسياسية وما الى ذلك كله ، ويكتب في الفيزياء والرياضيات والهندسة والجبر بل وحتى في الفلك ويتناول بحديثه المجموعة الشمسية والكواكب السيارة والثابتة ويقدم لقرائه نبذة عن العلوم الطبية مضمنا اياها جملة ارشادات وتوجيهات صحية طبية بمعنى أنه حاول أن يكون لدى قرائه ثقافة طبية صحية عامة اذ تحدث عن بعض الامراض والاصابات باعراضها وأسبابها وطرق الوقاية والعلاج فيها ويكتب في اللغات فيتناول تقسيمها الى حية وميتة ساقطة ، وكان من البديهي جدا أن يركز على الفرنسية اذ أنها التي يتقنها والتي تلقى بها دراسته العالية بباريس ما بين ١٨٢٦ الى ١٨٣١ ، وكان من البديهي أيضا أن يولي العربية اهتماما واسعا فألف كتابا في النحو العربي (التحفة المكتبية) وهو الاول من نوعه في العربية في العصر الحديث اذا اعتمد فيه على الاسس العلمية الحديثة في تعليم النحو وسار به على النمط الذي سارته كتب النحو الاوربية سواء بلغاتها أم باللغة العربية ذاتها ، كما وكتب في الفكر السياسي فتحدث عن النظرية السياسية العامة

وعن الدولة واركانها وحتمية قيام السلطة الحاكمة وعن العلاقة بين الرعية والسلطة وسيادة القانون في هذه العلاقة وعن السلطات الثلاث في الدولة ووظائفها واختصاصاتها ومبدأ فصل السلطات وتقسيم الاختصاصات في الدولة الحديثة وعن نظريتي التفويض الالهي والعقد الاجتماعي في الحكم وعن الحرية والديمقراطية والبرلمانات والحقوق المدنية والحريات العامة وقضيتي الوطنية والقومية(٨) كما كتب في الفكر الاقتصادي إذ بحث في قطاعي الانتاج والخدمات ومنابع الثروة والعلاقة بين العمل ورأس المال ودور الدولة بتنظيم الحياة الاقتصادية وتطور النظام الاقتصادي العالمي ، ويكتب في التاريخ مخلفا مؤلفات تاريخية كثيرة قيمة يتبين للقارىء منها أنه فهم التاريخ على أنه علم له أصوله وضوابطه وليس مجرد سرد حكايات وقصص كما فهم كتاب عصره وزمانه أو مجرد أساطير وخرافات وترهات لا يصدقها الابله الساذج فتراه يتعرض لتاريخ اليونان القديم والميثولوجيا والآداب اليونانية القديمة وعن البابليين والسريانيين والمصريين والسوريين القدماء ويؤرخ لمصر كتابا اعتمد فيه على أحدث الكشوفات التاريخية الاثرية التي تمت الى عهده ، كما خلف لنا كتبا في الثقافة العامة كتلخيص الابريز ومناهج الالباب ومن خلالهما سعى أن يكون لدى قارئه ثقافة سياسية وعلمية وفكرية عامة واسعة عريضة كما ترجم قانوني التجارة والمدني الفرنسيين ولا ننسى أنهما من أول المدونات القانونية الاوربية التي تترجم للعربية في العصر الحديث ولا نغفل عن أحاديثه عن مظاهر الحياة الغربية الحديثة حيث وصف لنا ملاهي ومنتزهات باريس وحاول عبر تلخيص الابريز أن يقدم لنا صورة تامة أمينة عن الحياة الباريسية من كل جوانبها وأركانها بأصغر الدقائق وأعمق التفاصيل ، ولعل أهم دور له في تطوير مادة النثر العربي الحديث انه أثرى هذا النثر بفن القصة وعرف جمهوره بهذا الفن فترجم قصة تلماك لفنيلون وهي فيما نعلم الى الآن انها أول قصة ترجمت للعربية بعصرنا المعاصر وفيها حاول نقل الادب الاسطوري اليوناني القديم الى الفكر العربي .

وكل هذا تفتني به المكتبة العربية ونثرنا الحديث ويطل به على آفاق جديدة لم تكن له بها أية اطلالة سابقة ولا عهد للقراء العرب بها من قبل الطهطاوي لا ما قريب ولا من بعيد او على الاقل لنقل أنهم ولاول مرة بحياتهم يطلون على الآفاق برؤية جديدة تأخذ بروح العلم وأسسه وضوابطه وقواعده .

ب ـ دور رفاعة في تطوير شكل النثر وقالبه :

ومن حيث قالب النثر أو اشكاله فقد كان لرفاعة دورا جسيما وكبيرا في تطوير النثر الحديث اذ آثر في جل نثره الاهتمام بالمعاني والافكار التي يريد أن يعرضها لقارئه أكثر بكثير جدا من اهتمامه بتنسيق العبارات ورصفها وتصيد المحسنات والتنقيب عن البديع ، كما وجد في تحطيم قيود الماضي لينهض بأداء المعاني والافكار الجديدة دونما أن يقف الاسلوب عائقا في سبيل هذه الافكار والمعاني ، فترسل في أكثر نثره واعتمد به البساطة والسلاسة والطواعية والوضوح والسهولة واليسر وتدفق العبارة وجهد في تجنب الركاكة والتنميق والزركشة اللفظية ورغم هذا كله فانه وللاسف لم يستطع خلاصا نهائيا من رواسب الماضي وقيود المرحلة الزمنية التي عاشها والتي تعد راكدة متخلفة بالقياس لما تلاها من مراحل زمنية لاحقة أكثر تطورا وتقدما، فلم يبرء نثره مما لازال عالقا بنثر هذه المرحلة من شوائب وآفات وسقم ، ومن هنا سبق وقلنا أنه في جل نثره وليس به كله قد خرج عن النهج العقيم الركيك الهابط الذي دأبه الكتاب الآخرون ، ولكن دونما أن تطفى تلك الآفات او الشوائب والاسقام على كل نثره ودونما أن ننكر له دوره البارز في النهوض بنثرنا العربي الحديث بقالبه ومادته وتخليصه من قيود السجع واغلال البديع والزخرفة ورصف العبارات وتنميقها وتنقيته من آثار الركاكة والتكلف .

وعلى هذا كله فليس نثر رفاعة بالقياس الى ما وصل اليه نثرنا المعاصر من الطراز الانيق الفاخر لكنه بالقياس الى المرحلة الزمنية التي هو ابنها يعد بحق قد وصل الى مرحلة الاوج ويمثل لنا صفحة ناصعة مشرقة من تاريخ تطور نثرنا العربي .

ولئن وجدت بنثره الركاكة والتكلف والزخرفة والعامية والاعجمية فاعذره اذ لا تنسى أنه كان يتناول مواضيعا جديدة عليه كل الجدة ولا سبق له أن اطلع عليها فمن أنى له أن يعرف الديمقراطية والحقوق المدنية والبرلمانات والحريات العامة والعلوم والمخترعات الحديثة ومظاهر المدنية الغربية والحضارة الاوربية ، فهو قد وجد نفسه ازاء فيض من الكلمات الغريبة عنه تماما ولا مقابل لها في العربية ولهذا جد بالوصول

الى مصطلحات عربية تقابلها وتؤدي معناها وان كانت مصطلحاته تلك تبدو أحيانا قلقة غير مأنوسة وطويلة العبارة ، فان أعجزته عمد الى الترجمة الحرفية أو الى تعريب الكلمة أو نقلها بلفظها الاجنبي الى العربية بعد صقلها وتهذيبها وتطويعها لتلاءم اللسان العربي معتمدا بذلك منهج المترجمين بالقرنين الثالث والرابع الهجريين عندما نقلوا علوم الفرس واليونان وأحيانا كثيرة يستعمل المرادف لتلك المصطلحات من العامية الدارجة أو من التركية ، ولا ننسى ههنا كذلك أنه كان وحده في هذا الميدان الوعر الشاق فلا مجامع لغوية ولا مترجمين ثقاة يعتمد عليهم وعلى العموم فمن الملاحظ أن رفاعة اعتمد السجع والبديع فيما يلي :

١ ــ عناوين مصنفاته فيطالعنا منها (تلخيص باريز ــ التعريبات الشافية لمريد الجغرافية ــ قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر ــ مواقع الافلاك في وقائع تليماك) .

٢ــ في مقدمات كتبه ومؤلفاته فنقرأ من كتابه تلخيص الابريز (وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الايجاز وارتكاب السهولة في التعبير حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه والوفود على رياضه ولو صغر حجمه وقل جرمه) انظر في مقدمته لقصة تليماك اذ قال (تشمل على الحكايات النفائس في ممالك أوربا وغيرها مما عليها مدار التعليم في المدارس ومؤلفه ملك اداب وذو ملكة سيالة تفيض بالعجيب العجاب)(٩) ومن كتابه مناهج الالباب نختار لك قوله عن الكتاب (يعين الجمعية العمومية ــ المجتمع ، بقدر الاستطاعة ويبذل ما عنده من رأسمال البضاعة لمنفعة وطنه العمومية وذلك بتصنيف نخبة جليلة وترصيف تحف جميلة اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة مع مما سنح بالبال واقبل على الخاطر احسن اقبال) .

٣ــ في الموضوعات الادبية الخالصة الصرفة كالوصف والرسائل وغيرها وفي الموضوعات المشحونة بالعاطفة فحينما ترجم قصة تليماك ترجمها باسلوب مسجوع حيث نرى تليماك يقول عن مصر (قد تفرجنا وسرحنا في أرض مصر الخصيبة الشبيهة بجنة تجري من تحتها الانهار ، من الشطين في أي جانب كان مدن عظيمة غنية شديدة العمران) (١١) وعندما تأخذه العاطفة الحادة يلجأ كذلك الى السجع والتأنق في عباراته وتنميقها كأنما يعتقد أن هذه العواطف ينبغي أن تلبس ثوبا خاصا يعتقد جماله ولتظهر بأبهى حلة وأجمل زينة فعندما تحدث عن مصر جنحت به العاطفة الجياشة المتأججة في صدره فقال (بلدة معشوقة السكنى رحبة المثوى حصباؤها جوهر وترابها مسك اذفر واسعة الرقعة طيبة البقعة كأنما محاسن الدنيا عليها مفروشة الجنة فيها منقوشة)(١٢) ، وواضح كيف تسف عباراته بهذا النص وكيف تحتشد الزخارف وسذاجة التعبير ، ولكن للانصاف والحق فاننا نقرر أنه كثيرا ما كان في سجعه وزخرفته وتنميقه يظل أفضل بكثير جدا من سواه وغالبا ما يأتي سجعه وتنميقه عفويا غير مقصود لذاته ويظل على العموم أقل الآخرين جميعا اتكاء على أسلوب السجع والزخرفة والتنميق ، ويكفيك دليل أيها القارىء أن تقارن نصوصه بنصوص سواه من الكتاب لتقف على حقيقة ومصداق ما نقرره .

ولعل أكبر دليل على ايمان رفاعة الراسخ المتين بضرورة وأهمية تطوير النثر العربي وتنميقه من فنون الصنعة والزخرفة ، ذلك النص الذي ينتقده فيه بصراحة وجرأة فريدة ذلك الاسلوب الانشائي العقيم الذي اعتمده الكتاب بعصره ، وذلك حينما راح يتحدث عن سهولة اللغة الفرنسية وتيسيرها الافادة من العلوم (فاذا شرع الانسان في مطالعة أي كتاب كان في أي علم تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير ان يحاكي الالفاظ فيصرف سائر همته في البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ، واما غير ذلك فهو ضياع ، اذا اراد الانسان مثلا أن يطالع علم الحساب فانه يفهم منه ما يخص الاعداد من غير أن ينظر الى اعراب العبارات واجراء ما اشتملت عليه من استعارات والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة للتجنيس وقد خلت منه وأن المصنف قدم كذا ولو أخره لكان أولى وأنه عبر بالواو محل الفاء ، ونحو ذلك)(١٣) .

أما اسلوب الترسل والبساطة والليونة والطواعية فقد اعتمده رفاعة في نثره السياسي والاجتماعي والعلمي والفكري أو بصورة عامة فقد اعتمد هذا الاسلوب في كل موضوع يحتاج الى غوص وراء المعاني وبسط الافكار وتعمق بالمعاني ، فيطلق نفسه على سجيتها وينبذ الزخرفة والتصنع وتصيد فنون البديع ورصف العبارات ، فمن نثره السياسي نأخذ حديثه على السياسة وتعريفه لها ، علما انه يصطلح لها

مصطلح البولتيقيا فيقول (والآن يتساءلون عن أحوال الدولة داخلية وخارجية من جهة ادارتها وسياستها وما فيها من التولية والعزل ونحو ذلك ، وهذا مايسمى بوليتيقا ـ سياسة ، والمتكلم بشأن ذلك يقال له بوليتيقي ـ سياسي ، فما كان بين الدول يقال له بوليتيقا خارجية وما كان في دولة واحدة فيما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بوليتيقا داخلية)(٤) ، وخذ حديثه عن أشكال الحكومات السائدة حتى عصره فيقول معرفا النظام الملكي بشكل عام (اذا كان الحكم بيد واحدة فالحكومة مونارخية أي واحدة الحكم ملوكية كانت أم سلطانية ، حكم الملك او السلطان أما ان يكون مقيدا أو مطلق التصرف ، والمقيد ـ الدستوري ، أن يكون الملك يحكم الا بقوانين المملكة التي انحط عليها القرار ولا يخدشها بنفسه ولا يخرج عنها الى ارادته بمعنى انهم يقولون لا ينبغي النظر الا الى القوانين فقط فكأنه عبارة عن آلة ، أما مطلق التصرف ـ اللادستوري ، فهو الفاعل المختار الذي تكون ارادته فوق قوانين المملكة ، بمعنى أنه ينبغي تسليم الامر لولي الامر من غير أن يعارض من طرف الرعية بشيء ، وحكم الجمهورية أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة لملك اصلا ولما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختار للحكم وهذا هو حكم الجمهورية)(١٥) ، ومن نثره الاجتماعي على سبيل المثال خذ حديثه عن الدعوة لتحرير المرأة العربية واتاحة فرص العلم والعمل أمامها (العمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة واذا كانت البطالة مذمومة بحق الرجال فهي مذمة عظيمة بحق النساء)(١٦) ، وخذ حديثه عن سفور المرأة وقضية الحجاب (ان وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة او الخسيسة والتعود على محبة واحد وعدم التشريك في المحبة والالتئام بين الزوجين ، ومثل هذا الوضوح نراه في حديثه عن حتمية التطور الاجتماعي (ولا ينبغي لاهل هذا الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف تجرد عن فضائل السلف فليس كل مبتدع مذموم بل أكثره مستحسن فمخترعات هذه الاعصر كلها من أشرف ثمرات العقول يرثها على التعاقب الآخر عن الاول ويبرزها في قالب اكمل من السابق وأفضل)(١٧) ، نعم انك لواجد بهذا النص شيئا من فنون البديع بيد أن ذلك أتى عفويا وليس مقصودا لذاته بل انه على العكس تماما ساهم الى قدر كبير في ترسيخ الفكرة وتعميقها بذهن القارىء أيضا خذ كلامه عن التمدن الحقيقي والتمدن الزائف فيقول (وربما توهم البعض أن التزي بزي الاجانب هو من المروءة والسيرة الحسنة الفاضلة فالتمدن ليس في زينة الملابس فحاجة الوطن الى المنفعة الحقيقية أشد من حاجته الى تقليد العرف الذي هو منفعة ظاهرية)(١٨) ، واذا وفدت الى نثره العلمي ستجد أيضا ما أشرنا له آنفا من ترسل وتدفق في العبارة وغوص وراء الافكار وبسط لها كحديثه عن أهمية التربية وانعكاسها على اطراد التقدم والنمو (فالامة التي تتقدم فيها التربية يتقدم فيها ايضا التمدن بخلاف الامة القاصرة التربية فان تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها)(١٩) ، واني لاكاد أجزم أن أحدا من كتابنا أفضل صياغة من رفاعة السابقة ومثل هذا نجده في حديثه عن العقل ودوره للانسان (لا يقال ان جميع ما خلقه الله انما هو لاجل هذا الانسان من حيث جسمانيته بل من هيئة أخرى امتاز بها وهي عقله وعلمه)(٢٠) .

ولست بظان اني بحاجة لابين للقارىء الكريم ذلك الاسلوب المرسل المطواع الذي اتكىء رفاعة عليه في نصوصه السابقة ولا لابين كيف خلت هذه النصوص من التنميق والتزيين وفنون البديع والزخرفة اللفظية فهذا واضح وضوح الشمس بظهيرة يوم صيف ، ولكن للقارىء أن يستدل عليه بنفسه فيما اذا قارن نصوص رفاعة السابقة بما سبق وعرضناه من نصوص لكتاب آخرين في مقدمة البحث هذا ، والجدير بالذكر أخيرا ان رفاعة كان ببعض الاحايين يزاوج بنثره بين اسلوبي الترسل والطواعية وبين أسلوب التقفية والتسجع والزخرفة والبديع ، وذلك تبعا لنوعية الموضوع الذي يعالجه وفقا للقواعد التي حددناه لكل اسلوب من الاسلوبين .

كلمة أخيرة :

ونحن نرى أن دور رفاعة في تطوير النثر العربي كان فعالا جسيما وهاما وساهم كثيرا في دفعه الى الامام أشواطا طويلة طويلة وفي الارتقاء به الى مرحلة النضج والفنى والاصالة والابتكار والوضوح والدقة والبساطة والسلاسة والطواعية والتدفق ، بيد أننا نضيف الى ذلك أن دوره الذي أداه في تطوير مادة او مضمون النثر العربي وارفاده بروافد أو

مواضيع جديدة لم تكن له سابقا ، مواضيع غنية أصيلة بفكرها وعلمها وثقافتها ، كان أكبر من الدورالذي أداه تطوير شكل أو قالب هذا النثر دونما أن ننتقص من دوره الفعال بهذا الصدد ودون أن نطمس جهوده الجبارة فيه ، والى مثل هذا أو ما هو قريب منه ذهب الباحث أحمد أمين اذ قال (قيمة الشيخ رفاعة ليست في اسلوبه انما هي في انه نشر العلم في أوساط رحبة فسيحة وفتح للمتعلمين آفاقا واسعة لم يكن لهم عهد بها من قبل وذوقهم معنى العلم الصحيح وشوقهم للاستزادة منه)(٢١) .

زياد كامل
دمشق

تنويه :

هذا البحث فصل مختصر من مشروع كتاب عن رفاعة نحن بصدد تأليفه الآن ، بعنوان (رسالة رفاعة الطهطاوي الى حركة النهضة العربية الحديثة) ولكننا ارتأينا أن ننشر ما فرغ من فصوله في بعض المجلات والدوريات الثقافية العربية ، فانظر في مجلة المعرفة السورية أعداد ٢١٧ و ٢١٩ وما بعدها (رفاعة الطهطاوي رائد الفكر السياسي العربي الحديث) .

المراجع والهوامش :

١ – نشأة النثر العربي الحديث وتطوره ، عمر دسوقي بيروت ٧٦ دار الفكر ، ٣٧ . ٢ – نشأة النثر ٢٦ . ٣ – نشأة النثر ٢٨ . ٤ – نهضة العراق الادبية مهدي البصير ١٩٤٦ ٢٤٠ والفنون الادبية واعلامها أنيس مقدسي بيروت ط ٢ ٧٨ دار العلم للملايين ، ٤٥. ٥ – الفنون الادبية ٤٥ . ٦ – الاصول العربية لتاريخ سورية أسد رستم ٦٠. والفنون الادبية ٤٥ . ٧ – تحفة الناظرين للشرقاوي مصر ١٨٢١ وأصول الفكر عند الطهطاوي فهمي حجازي مصر ١٩٧٤ الهيئة العامة للكتاب ١٠ . ٨ – أنظر بحثنا رفاعة رائد الفكر السياسي العربي الحديث بالمعرفة اعداد ٢١٧ و ٢١٩ لعام ١٩٨٠ . ٩ – مقدمة تليماك ونشأة النثر ٣٩ . ١٠ – مقدمة مناهج الالباب ونشأة النثر ٤٢ . ١١ – قصة تليماك ونشأة النثر ٤٠ . ١٢ – نشأة النثر ٤٥ . ١٣ – تلخيص الابريز ١٥٩ . ١٤ – راجع الوقائع المصرية وتاريخ الوقائع لابراهيم عبدة مصر ١٩٤٦ وأدب المقالة الصحفية عبد اللطيف حمزة مصر ١٩٥٨ . ١٥ – المعرفة السورية الاعداد ٢١٧ و ٢١٩ وتلخيص الابريز ٢١٢ و ٩٤ و ٢١٩ . ١٦ – المرشد الامين ٦٦ – . ١٧ – مناهج الالباب ٤٤١ و ٤٤٢ . ١٨ – مناهج الالباب ١٥ . ٢٠ – المرشد الامين ٣٤ . ٢١ – الثقافة لاحمد أمين ع ح٢٣٦ .

جدول بمؤلفات الطهطاوي

١ – ارجوزة في التوحيد ١٨٢١ .
٢ – خاتمة لقطر الندى ٨٢١ .
٣ – ترجمة قصيدة شعرية ليوسف أجوب الفرنسي ١٨٢٧
٤ – ترجمة تقويم مصر والشام لجومار ١٨٢٩ .
٥ – ترجمة قلائد المفاخر ١٨٣٤ .
٦ – ترجمة المعادن النافعة لفرارد ١٨٣٢ .
٧ – ترجمة مبادىء الهندسة لسانسير ١٨٣٤ .
٨ – التعريبات الشافية لمريد الجغرافية ١٨٣٤ .
٩ – تخليص الابريز ١٨٣٤ .
١٠ – ترجمة جغرافية ملطبرون ١٨٣٤ – ١٨٤٦ .
١١ – جغرافية عمومي في كيفية الارض ٨٣٨ .
١٢ – بحداية القدماء ١٨٣٨ .
١٣ – الاشراف على القسم العربي بالوقائع ونشر مقالات فيها ١٨٤١ .
١٤ – شرح لامية العرب ومختصر معاهد التنصيص والمذاهب الاربعة في الفقه ١٨٨١ .
١٥ – تليماك بيروت ١٨٥٠ .
١٦ – منظومة وطنية مصرية ١٨٥٦ .
١٧ – جمال الاجرومية في النحو ١٨٦٣ .
١٨ – القانون المدني الفرنسي ١٨٦٦ .
١٩ – قانون التجارة الفرنسي ١٨٦٨ .
٢٠ – أنوار التوفيق الجليل ١٨٦٨ .
٢١ – التحفة المكتبية لتقريب العربية ١٨٦٩ .
٢٢ – انشاء مجلة روضة المدارس ونشر عدة دراسات بها ١٨٧٠ .
٢٣ – القول السديد في الاجتهاد والتقليد ١٨٧٠ .
٢٤ – رسالة البدع المتقررة ١٨٧٠ .
٢٥ – مناهج الالباب ١٨٧٠ .
٢٦ – المرشد الامين للبنات والبنين ١٨٧٢ .
٢٧ – نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز ١٨٧٣ .

قراءة جديدة

المرأة في شعر نزار قباني

متابعة

في هذا البحث سألقي بعض الضوء على وجه الالتزام عند نزار قباني من خلال نظرة شمولية على قصائده الغزلية المتمثلة في عدة دواوين .

● ولد نزار قباني في دمشق عام ١٩٢٣ بين عائلة معروفة بنشاطاتها الادبية والسياسية ، درس في جامعة دمشق وتخرج منها عام ١٩٤٥ ثم عمل في السلك الخارجي أعواما عديدة وبعدها انصرف الى النظم وأعمال الطباعة والنشر .

● من منشوراته الشعرية « الاعمال الشعرية الغزلية » و « الاعمال الشعرية السياسية » ومن منشوراته النثرية : « قصتي مع الشعر » و « الشعر قنديل أخضر » و « الشعر والجنس والثورة » .

● عاش نزار بعيدا عن عامة الشعب في طبقة ساعدته على الخروج الى الغرب والاتصال بالثقافة الغربية وتقاليدها الاجتماعية .

وعند عودته الى وطنه اصطدمت أفكاره وطباعه بتقاليد وطنه وأفكار شعبه فكتب ونقد فأصبح ثورة في الموضوع وكانت المرأة هي الموضوع وكان السبب في ذلك يعود الى عدة عوامل صنعت منه فارس الحب في الشعر العربي الحديث .

ومن أولها : الحياة المترفة التي يعيش فيها حيث أضعفت عنده الهموم الانسانية فاغتنى بأمور عرضية زائلة ولذلك فهو لا يرى حرجا في التلصص على ساق امرأة طائشة الحركة واصفا انفعاله بالمشهد بأخصب برهة وجدت وارساء مركبه في بقعة من ساق امرأة

فاغرز هنا المرساة يا مركبي

ويا فم الجورب لا تنطق(١)

أما الامر الثاني وراء لجوئه الى المرأة هو اصطدامه في الشرق المكبوت والجو المحافظ الشديد الذي يفرض نفسه عليه بقوة ممثلا بمجتمع دمشق وبقية المحافظات في القطر السوري .

والعامل الثالث الذي دفع به الى ميدان الحب هو ربما فشل أحد أقاربه في الحب فكانت كتاباته تعويضا عما جاش في صدره وانتقاما له من مجتمع يرفض الحب ويطارده بكل وسائل المطاردة . كل ذلك جعل من نزار طريد مجتمعه ذلك الذي عجز عن التأقلم معه ومسايرته فكان الهروب ولم يكن هروب أبي العلاء ، والاعتزال الى النفس بل كان رفضا مباشرا لواقعه وهروبا متمردا ناشزا نحو المرأة والجنس ، لانه وجد في ذلك خلاصه من أزمته وعلاجا لنفسه واكتشف أخيرا أن الجنس لا يمكن أن يكون دواء لمشكلته .

الجنس كان مسكنا جربته
لم ينه أحزاني ولا أزماتي
والحب أصبح كله متشابها
كتشابه الاوراق في الغابات (٢)

● وعندما كان نزار في كلية الحقوق نشر أول ديوان له بعنوان « قالت لي السمراء » عام ١٩٤٤ م وكانت قصائده مليئة بالفحش فذهل منها المتربعون على قمة الكلاسيكية آنئذ ، أمثال « عمر أبو ريشة وخليل مردم » لما فيها من صراحة ووضوح لم يصل اليه شاعر حديث ولم يجرؤ أحد من الشعراء أن يأمر « المرأة بصب نهدها الاسمر في دنيا فمه »(٣) .

سمراء .. صبي نهدك الاسمر في دنيا فمي
نهداك نبعا لذة حمراء تشعل لي دمي

بكل هذه الجرأة بدأ نزار حين كان المتربعون على قمة الكلاسيكية اذا تغزلوا ، تغزلوا باحتشام وحافظوا على العفة في الرجل والمرأة على حد سواء .

● ومن الطبيعي أن يثير هذا الشعر « المكشوف » في بلد محافظ ضجة كبيرة وكان أيضا من السهل تفجيره جنسيا لانه وجد في شعر نزار ريا له ولو كان شعر نزار قد وجد في بلد أقرب الى البيئة الاوربية لما كان لشعره ذلك الهيجان الشعبي ولما اتهم الشاعر ..

● ولكن نزار في هذه البداية كان قد هجر الطريقة الكلاسيكية في الشعر العربي ونحا نحوا جديدا في التعبير عن عواطفه الهائجة وأمانيه العذاب ، فكتب « ذاته » بصدق وحرارة وبواقعية لا تتلاءم ومحيطه الذي تكتنفه شتى التقاليد ، فكان مرآة نفسه وصدى شعوره وحسه ، كتب تجاربه وصور ذاته بشتى انفعالاتها « ذات شاب محب في رونق العمر » وكذلك لم يتحرج في أن يصور بواقعية منطلقه ونلحظ ذلك قصيدته في (من كوة المقهى)(٤)

الى صديق ... أم ترى لموعد ؟
أم أنت لا تبغين مثلي وجهة
فتضربين في المدى مستهترة
ما ضر لو شاركتني مائدتي

فبهذه الابيات التقط الشاعر احساسا ساوره وقد يساور الكثيرين من الفارقين بين الفناجين ولفائف التبغ عندما تمر أمامهم من نافذة المقهى غادة معطرة فيتساءلون الى أين يا ترى ذاهبة ؟ وما ضرها لو شاركت أحد الغارقين في جلسته ؟ فبكل ما في الواقع من قوة حاول أن يصور تلك الاحساسات بشكل جديد على سابقيه ومعاصريه ومن هذه الواقعية استطاع نزار أن يخرج من الجسد الواحد ألف قصيدة وفي هذا أيضا كان مجددا فنظرة الى امرأة مضجعة تكفي عنده لتكون موضوعا شعريا بالاحساسات وصور خصاب مقرونة بخيال مجنح في ابتكار الصور التي كانت وراء قوة نزار قباني ومصدر تجديده .

● ولكن لو نظرنا الى أعماله الغزلية نظرة شمولية لرأينا أن المرأة في شعره قد مرت في ثلاث مراحل .

كانت المرحلة الاولى : التحدث عن أشياء المرأة ، من جورب وفستان وقلم حمره للشفاه وكم دانتيل

يا كمها الثرثار .. يا مشتل
يا رائع التطريز .. يا أهدل
يا كمها .. أنا الحريق الذي
أصبح في هنيهة جدول
قطعة « دنتيل » أنا مركبي
ان يرتحل مع الندى أرحل

ومن هنا نرى مدى أخذه موضوع المرأة ، فلم يكن هدفا بل موضوعا لاثارة الشاعرية في روحه فكتب في فستانها وقلمها ولا بأس فهو يكتب الكثير عن أجزاء جسمها أيضا من ساق ونهد وشفة

قيل : ساق تمر ... وارتجف الفل
حبالا على طريق خصيب ...(٦)
عربدت ساقها ... نهر أناقات
وسال البريق في أنبوب ...

ومن قصيدته بعنوان حلمه :

تهز هزي .. وثوري يا خصلة الحرير (٧)
يا مبسم العصفور .. يا أرجوحة العبير

أما المرحلة الثانية : فتحدث فيها عن مشاعر المرأة وعواطفها وتجلى ذلك في أمرين .

الاول : هو تعلق المرأة بالرجل وخضوعها له وتمسكها بمهمتها له فهذه أمرأة تهوي رجلها فتتحدى المدن في حبها فتصنع المستحيل في ارضاء طلبه فتأتي بالشمس فتنشر حبها بين العصافير وفوق الغيم .

متى ستعرف كم أهواك يارجلا
أبيع من أجله الدنيا .. ومافيها(٨)
يا من تحديت في حبي له .. مدنا
بحالها وسأمضي في تحديها

أنا أحبك فوق الماء أنقشها
وللعناقيد .. والاقداح أسقيها .

أما الامر الثاني فكانت المرأة فيه تعبر عن ألمها وعذابها وحرمانها فترضى حتى ولو بالنظر اليه والتفرس في وجهه والفناء بدخانه ، فيكفي لها أن تشعر أن هناك من يحميها .(٩)

فأنا كامرأة ... يكفيني أن أشعر أنك تحميني
أن أشعر أن هناك يدا تتسلل من خلف المقعد
كي تمسح رأسي وجبيني .. لتداعب أذني بسكون

أما المرحلة الثالثة : كانت انتقالا الى مشكلات المرأة فتحول بذلك من الناحية الجمالية الى الناحية السيكولوجية الاجتماعية وهذه المشكلات تتحرك لتصبح أوضاعا بين الرجل والمرأة تنتهي ببرود عاطفة الجنس وفضح العلاقة بينهما وفي هذه المرحلة ينقل الصراع الى مستوى عصري جديد ينفصل فيه الحب عن الجنس وكان يتجلى ذلك بموقف للمرأة وموقف للرجل .

أما موقف المرأة : هو ماكانت تعانيه من القهر والكبت والحرمان وهذا ما في رسالة من امرأة حاقدة حين قامت بزيارة حبيبها فأوصد بوجهها الباب وأدخل مكانها امرأة أخرى الى أن يبقيها جثة مصير فيرمي بها الى الازقة والمضاجع والفوى .

« لا تدخلي » .... !
وسددت في وجهي الطريق بمرفقيك(١٢)
وزعمت لي ....
أن الرفاق أتوا اليك ... ؟
أهم الرفاق أتو اليك
أم أن سيدة لديك .... ؟

أما الرجل كان ثريا لايعرف من المرأة الا تلك البلورة الصافية متى تكسرت رماها في أزقة الشوارع تعالج مصيرها وحيدة فتهوى الى الرذيلة وبيع الجسد وهذه قصيدة (حبلى) تفضح الرجل البرجوازي الذي ينظر الى المرأة باعتبارها وعاء للمتعة وأداة للذة ، يتعامل معها بماله باعتبارها سلعة يشتريها ويلهو بها ثم يرميها ولا يتعامل معها باعتبارها امرأة ذات كيان يرتبط بها ويحبها .

لاتمتقع !
هي كلمة عجلى (١٣)
اني لاشعر أنني
حبلى ! !
وصرخت كالملسوع بي :
« كلا » !
سنمزق الطفلا
وأردت تطردني
وأخذت تشتمني
لاشيء يدهشني
فلقد عرفتك دائما نذلا
ليراتك الخمسون ... تضحكني
لمن النقود .. لمن
لتجهضني ؟
لتخيط لي كفني ؟
هذا اذن ثمني ؟
ثمن الوفاء يا بؤرة العفن

وبذلك يكون نزار قد انتقل من موضوع التغزل بالمرأة والاهتمام بأشيائها الى مكانتها في المجتمع والاهتمام بمشكلاتها ولاسيما ماتعاني من قهر اجتماعي وقد عبر عن ذلك في ديوان كامل بعنوان (يوميات امرأة لا مبالية) .

ومن هذا المنطلق كان لابد له من الابتعاد عن الوصفية المعتمدة على الحسية من همس وبصر وتجسد ذلك في قصيدتي نهر الاحزان وثلاث بطاقات من آسيا .

فيروزتي ... مازلت في سفينتي
أصارع الشموس واللصوص والدوار
نزلت في مرافىء موبوءة المياه(١٠)
صليت في معابد ليس لها اله
لمست سقف الشمس
كانت رحلتي انتحار

وبذلك حاول أن يتبرء من الرؤيا ويتغلغل الى ضمير الاشياء ليتحرر من التصوير وجنوحه القاتل فاذا به يتصل بعالم الذهول والرموز .

وبهذا يمكن للشاعر أن يعبر عن تجربة الانسحاق والضياع في متاهات المجتمع لتأتي عميقة الدلالة عن نفسه وفي هذه القصيدة تمثلت حبيبته بالحياة حين وقف أمامها وهو يشعر بالهزيمة لهذا لاتعثر في قصائده الاخيرة على جسد يتوهج بحمى الشبق ولا ساق عارية ولا شفة ممتلئة لان تعرفه على حقيقة الاشياء عمقت نزوته فجعل يطرب بالتحدث الى المرأة ومراودتها وارسال الكلمات بدل الغرور بالشباب والرجولة .

سيدتي عندي في الدفتر
ترقص آلاف الكلمات (١١)
واحدة في ثوب أصفر
واحدة في ثوب أحمر
انا لست وحيدا في الدنيا
عائلتي ... حزمة أبيات

أنا شاعر حب جوال
تعرفه كل الشرفات
تعرفه كل الحلوات
عندي للحب تعابير
ما مرت في بال دواة

● ولكن لو أردنا التمحيص في وجه الالتزام عند نزار لوجدناه يقوم على تقرير الوجود ووصفه والغلو بمظاهره وهو نوع من التفرير الذي يطفو على سطح الاشياء ففي قصيدته « حبلى » ليس فيها حل جديد ورؤيا جديدة للقضية التي يتحدث عنها ولكن الشاعر اكتفى بايراد الحادثة محاولا أن لا يؤثر على القارىء بفضيلة الحادثة ذاتها وفضيلة التقرير الخارجي الشائع الذي يفضح عجز الشاعر عن تفجير أبعاد الموضوع بتجربة كلية فالشعر لا يتولد نتيجة تحليل الشاعر للقضايا الاجتماعية تحليلا موضوعيا بل على العكس فان التجربة الفنية العميقة لاتنبث وتتفجر الا فيمايحدث من اختلال وتنازع وخصام بين الشاعر وواقع مجتمعه .

أما وجه الالتزام من موقف الرجل من المرأة حين يقوم هذا الرجل بخنق عواطفها بالقتل والارهاب فهو يدعو الرجل الى أن للحرمان الجسدي وكبت العواطف وقهر ميول الجسد الطبيعية وهدره مادامت النفس تشعله بلهيبها توقع الجسد بخطيئة العاطفة ثم ينسب الى هذا الرجل وأد الفتاة ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة الجاهلية فهو يئدها معنويا وروحيا ويدعها تحيا دون أن تتمتع بأمر من حقوق الاحياء فهي تمنع من التعبير عن عواطفها فكأن الرجل في حمقه يتوهم ان العاطفة اذا كبتت استسلمت وماتت او كأنه كتب على المرأة أن تحيا عاطفة كالصنم والوثن أو كالاداة التي تخضع لارادة مسيرها .

ياسيدي ..... !
أخاف أن أقول مالدي من أشياء(١٤)
أخاف لو فعلت
أن تحترق السماء
فشرقكم ياسيدي العزيز
يصادر الرسائل الزرقاء
يصادر الاحلام من خزائن النساء
يستعمل السكين
والساطور .... !
كي يخاطب النساء

فالشاعر يدعو اذن الى حرية العاطفة ان تتحقق وتزحف على هواها كي لا تستحيل الى حسرة وتعقد في النفس انشوطة الحرمان .

ولكن نحن نقول ان المرأة الغربية تواقع الرجل وتساكنه على غير زواج انطلاقا من مفهوم الحرية الذي مارسته وانفتحت عليه روحها فهي حرة بامتلاك جسدها كما تمتلك حياتها وهي تخضعه في أمورها للاقتناع الوجداني الذي يظهر اللذة الى نوع من المصانعة الروحية البهيمة التي لاوعي لديها لفكرة الحلال والحرام والخير والشر والحق والباطل فللمرأة حق الحرية في التعاطف ولا سلطة للرجل على ذلك الا أنها ملزمة في عواطفها بحدود الكرامة والشهامة والوفاء والخير فهي ليست ابنة المجهول بل ابنة الواجب المقيم .

ونضيف في باب حرية العواطف أنه ليس في الامر رجل وامرأة وانما انسان يتسامى الى انسانيته ، والعاطفة الواعية المسؤولة هي سبيله الى ذلك يهديها ويهتدي بها فلا تكون أداة للانحلال والارتجال ولسنا ندري الى أي مدى عثر نزار على مبرره في ذلك كله فهو ضرب من الهوس الذي يثير دون أن يستنير بل انه قد عمد الى نوع من التحريض يتدنى حدود الاثارة التي تطرب العامة وتفرغ كبتها وتبهج المرأة وتمنيها الاماني الكاذبة .

وهناك في نهاية المطاف لابد لي أن أذكر أن الشعر العظيم هو رفيق الانسان في طريق القدر واليقين وليس ضعة تلهو بها على شاطىء الذهن أمواج الحيرة بل يجب أن تشد أزره عاصفة التجارب الكبرى .

● **يوسف اسماعيل**
كلية الآداب ـ حلب

الحواشي :

(١) الاعمال الشعرية الكاملة ـ ديوان قصائد ـ ص ٣١٦ حب
(٢) ديوان الرسم بالكلمات وقصيدة الرسم بالكلمات ـ ص ٤٦٦.
(٣) ديوان قالت لي السمراء : قصيدة فهداك ص ٩٦ وان أول من نشر هذه القصيدة الاستاذ « عبد الغني العطري » في مجلة « الصباح » الدمشقية في العام ١٩٤٣ م . ـ المجلة ـ
(٤) ديوان طفولة نهد قصيدة ، من كوة المقهى ص ١٢٢
(٥) ديوان قصائد قصيدة كم الدانتيل ، ص ١٢٧ .
(٦) ديوان طفولة نهد ، الى ساق ـ ص ١٢٧ .
(٧) ديوان طفولة نهد (حملة من ـ ١٢٩) .
(٨) ديوان قصائد متوحشة الى رجل ص ـ ٧١٩
(٩) ديوان حبيبتي (صديقي وسجائري) ص ـ ٣٩٦
(١٠) ديوان حبيبتي (ثلاث بطاقات من آسيا)
(١١) ديوان حبيبتي (أكبر من كل الكلمات ـ ص ٣٧٣
(١٢) ديوان قصائد (رسالة من سيدة حاقدة ـ ص ٣٣٤)
(١٣) ديوان قصائد (حبلى ـ ص ٣٤٠
(١٤) ديوان يوميات امرأة لامبالية .



عاش العربي في صحراء الجزيرة العربية حياة بسيطة متقشفة متنقلا فوق رمالها الشاحبة المحرقة وراء منابت الكلاء وموارد وغدران المياه وذلك لتأمين أغنامه وأبله التي هي عماد رزقه ومعيشته وقد اكسبته هذه الطبيعة القاسية صلابة ومضاء وحدة وذكاء وكان للاخلاق العربية الاصيلة من كرم وشجاعة ونخوة وعزة المقام الاول في حياتهم الاجتماعية وفي هذا المجتمع القبلي كثيرا مايقع الاقتتال لاسباب بسيطة ومن ثم يشتد القتال ويطول أياما طويلة كحرب « داحس والغبراء » ويقع القتلى بالمئات وتبدأ عملية أخذ الثار الى أن يقوم المصلحون بعقد الصلح بين الاطراف المتنازعة ، وكان للشاعر زهير بن أبي سلمى السبق المجلى في هذا المضمار فقد قام بتحمل ديات القتلى ليعم السلام وتحقن الدماء العربية التي تهدر رخيصة، يقول الاستاذ أحمد أمين :

« ومن دراسة تاريخ العرب في العصر الجاهلي نرى أن هناك طبقة من الاغنياء الموسرين ذوي الثروة والجاه اذ يجتمع اولادها ذوي الميول الواحدة وتتلف مالها في الشراب وحضور مجالس اللهو ، اذ يجتمعون في مناسبات خاصة فينحرون الجزور وتحضر مجالسهم هذه القيان أو العوالي من الفرس والروم والاحباش ، ولكنهم لا يفقدون في شربهم ولهوهم شرفهم وابائهم ، فلهم جانبهم النبيل كل النبل والشريف كل الشرف ، ثاروا على كل شيء الا قانون المروءة الذي يتلخص في الشجاعة والكرم ، يلبون نداء المستغيث والمستجير ونصرة الضعيف ولو كلفهم حياتهم ، فلاقيمة للحياة عندهم اذا مست كرامتهم أو كرامة قبيلبهم أو اعتدى أحدهم على جارهم ولاقيمة للمال عندهم اذا طلبه منهم سائل أو يدعوهم لبذله داع ، ولا مانع عندهم بأن يخسروا المال ويكسبوا الشرف » .

وشاعرنا طرفه بن العبد من هذه الطبقة حيث عاش في بيت موسر ونسبه عال اذ كان والده من سادة « بكروائل » وكل له المقام المحمود بين قومه وعشيرته يقول الشاعر طرفه بن العبد مفتخرا بقومه وعشيرته :

لنا هضبة لايدخل الذل وسطها
ويأوى اليها المستجير فيعصما

ولقد ولد الشاعر عبقريا وشب عبقريا فأسمعنا وهو في زهرة العمر وعنفوان الشباب أناشيد الحياة والموت في لحن جميل ملؤه الكبرياء والعزة والفخر فأطربنا بأنغامه ومعانيه الصادرة من شاب عبقري القريحة صادق الشعور وقديما قيل مايخرج من القلب يمس القلب ، وقد ألمت بهذا الشاب العبقري المصائب العظام ففقد والده وهو طفل فكفله أعمامه ولم يعطوه ميراثه من أبيه ولم يعاملوا والدته المعاملة الحسنة فأثر ذلك كله في تفكيره وشعوره وشعره وفلسفته في الحياة ، ونرى ذلك في معلقته التي تنيف عن مائة بيت والتي نسمع في مطلعها الرائع :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفا بها صحبي على مطيتهم
يقولون لا تهلك آسى وتجلد

وفي معلقته هذه – كعادة الشعراء الجاهليين – الوقوف على الاطلال والغزل والفخر بنفسه وعشيرته ومن ثم يدلي بآرائه وفلسفته في الحياة من تفان في ملذات الحياة قبل الموت ، ثم الشكوى من ظلم ذوي القربى ثم يختصها بالفخر والحكمة ، والمعلقة من عيون الشعر العربي الجاهلي ويكفي أن يشيد بها الفيلسوف أبو العلاء المعري اذ يقول في رسالة الغفران « لو لم يكن لطرفة أثر الا قصيدته التي على الدال لكان قد أبقى أثرا حسنا » .

ونجد صدق العاطفة في كل بيت من أبيات القصيدة وذلك لان الشاعر لا يتكلف ما يقول وانما تأتي المعاني والالفاظ فتنظمها قريحة صافية بعفوية شعرا عذبا مصورا به الاخلاق العربية الاصيلة ، والاعتزاز بالنفس الذي ينبع من الثقة الكاملة بها ، والكرم العربي الحاتمي للضيف مهما كان العربي فقيرا حتى ولو اضطر لذبح فرسه لضيفه، ثم الشجاعة والبطولة المتمثلة بالفتوة والشباب التي ينشدها في البطل العربي في كل زمان ومكان .

مذهبه وفلسفته في الحياة :

للشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد فلسفة خاصة في الحياة لم يدرسها في مؤلفات أرسطو ولا غيره من الفلاسفة المعروفين ، وانما استقاها من تفكيره وفطرته وبيئته البدوية الساذجة ، فهو يرى بأن استغلال هذه الحياة استغلالا كاملا لصالح الفرد وذلك بأن يغتنم اللذة وينعم بهذه الحياة وما قيمة المال اذا لم نسعد بصرفه فقد رزقه الله الشباب الغض والقوام الحسن ، والمال والحسب الرفيع وان العمر زائل وأننا الى الموت مساقون ، ومن هذه الحياة زائلون فلم لانمضي هذه الايام القليلة بالشراب حتى الثمالة والاستمتاع بالجمال والعيون الواسعة الجميلة مثل عيون المها . والاجسام المشوقة مثل الرماح ، كل ذلك دون أن ينسى الجانب الجدي من الحياة وهو الدفاع عن العشيرة ورد المعتدين عن حماها ، فهذا العمر القصير حرام ألا نقضيه في الملذات والاستمتاع بالمغنيات وأصواتهم الجميلة ومجالس الشراب واللهو فالموت ليس منه مفر ولن يخلد انسان على وجه هذه الارض . يقول الشاعر :

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وهذا البدوي الفيلسوف شاعر وفارس وعاشق وذو حيوية وشباب فلينصرف اذن الى تحقيق رغباته والتهام الملذات قبل ان تفر منه فالايام فيها من فرص نادرة للهو والشراب ، وكل يوم يقضي لا يعود ، وطريق الانسان الى العدم المحتوم ، ولن يخطئه الموت والافضل أن نغتنم اللذات قبل فوات الاوان :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الايام والدهر ينفد
لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى

... ...

وما دام الموت سيصيب الغني والفقير ، الكريم والبخيل وان قبر الكريم المتلاف للمال سيكون مثل قبر البخيل الذي يجمع المال ولا يتلذذ بصرفه، فكلاهما في شرع الفناء واحد ، فلم لا نصرف ونتلف المال :

أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوى في البطالة مفسد

اذ يلتمس الشاعر كل الاسباب الداعية للاستقرار

في حياته الخاصة هذه ويخلق المبررات لها فالشباب والمال متوفران والموت كأس سيناله كل الناس فلم لا يمتع الشاعر نفسه بالجمال البدوي الاخاذ والاستمتاع بمجالس اللهو والغناء والشراب ولكن رغم ذلك فان نفس هذا الشاب تظل كبيرة لم يذلها الهوى ولم يخضعها الحسن ، ، فتبقى محترمة مهيبة طموحة الى المجد ، ان لقومه عليه حقا فهو فارسهم وسيد شبابهم وهو فتاهم عند الملمات فحليكن عند حسن ظنهم به :

اذا قالوا من الفتى خلت أنني
عنيت فلم أكسل ولم أتلبد

أحلت عليها بالقطيع فاجذمت
وقد ضب آل الامعز المتوقد

فزالت كما زالت وليدا مجاسن
ترى ربها أذيال شحل مهدد

ولست بحلال التلاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فان تبغني في حلقة القوم تلقني
وان تلتمسني في الحوانيت تصطد

وان يلتق الحي الجميع تلاقني
الى ذروة البيت الشريف المصمد

فدمائي بيض كالنجوم وقيفة
تروح الينا بين برد مجسد

فالشاعر يضع نفسه مثلا أعلى للفتوة في قومه ، لانه حائز على جميع الشروط والاوصاف التي يتطلبها هذا المقام الرفيع ، حيث أن الفتوة متوفرة فيه لنجدة قومه عند الملمات ، ولانه سرعان ما يلبي طلبهم فيقتاد ناقته ويمتطيها ويضربها بالسياط لتسرع الخطى في المسير فتتمايل في مشيتها كما تتمايل جارية بين يدي سيدها ، وهو لا يلجأ الى التلاع مخافة حلول الضيوف ، اذ هو كريم واسع الرحب في اكرامهم ، مثلما هو سريع النجدة في القتال ضد عدوه ، وهو يحيا الحياة بشقيها الجدية منها والهزلية ويدلي برأيه بين كبار قومه عندما يجد الجد لانه شريف النسب وعاليه ، فاذا انتهى وقت الهزل فاننا نجده في حانات الشراب يحتسي الخمرة ، مع ندمائه وتغنيهم مغنية تلبس بردا لونه أحمر كالزعفران فهو فتى قومه والفتوة في نظره تتصف بالشجاعة والكرم واتلاف للمال في الجد واللهو وعدم التمسك بالحياة في السلم والحرب ، ولقد عدد هذه الخصال التي يعيش من أجلها في قوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وحقك لم أحفل متى قام عودي

فهو يحيا للملذات والذود عن قومه واتلاف ماله بالكرم وعلى مجالس اللهو والشراب وان الحياة هي هذه الحياة فقط ولا شيء غيرها ، فليغتنم هذا الوقت ويرضي شهوات نفسه ما أمكنه ذلك هذا رأيه الخاص وكأنه يعلم أن أجله قصير اذ قتل ولم يتجاوز عمره الخمسة والعشرين عاما ولسلوكه هذا تجافته العشيرة ونبذته واصبح يعيش منفردا لا يقترب منه أي فرد من العشيرة كالبعير المصاب بالجرب :

ومازلت تشرابي الخمور ولذتي
وبيض وانفاقي طريقي ومتلدي

الى أن تجافتني العشيرة كلها
وافردت افراد البعير المعبد

وبرأينا أن هذا التجافي الذي وجده الشاعر من عشيرته ما هو الا تعبير عن رضائها عن سلوكه وهو أحد أبنائها بل أحد رؤسائها لان المجتمع الجاهلي الذي يأخذ بقوانين الطبيعة والفطرة يرى بأن الانسان خلق لغير هذا فليست الحياة كلها كأس وطاس ولهو واستمتاع بالمغنيات ومجالسهم الحمراء .

ونحن بدورنا وان كنا لا نؤيد الشاعر طرفة بن العبد في سلوكه هذا ولكننا رغم ذلك نرى أنفسنا معجبة بهذا الفتى الذي يتوقد ذكاء ونخوة وشاعرية وشجاعة ونجدة وحمية وبطولة التي كانت ولازالت من صميم الصفات العربية الاصيلة قديما وحديثا أما مذهبة وسلوكه في الحياة الذي يتمثل بسلوكه الذي لا يعرف العمر الا لانه هو الشباب والشباب وحده ، وان المنية هي الحد الاخير لتحقيق الامكانيات ، وهي نهاية الحياة وليس بعدها شيء غير العدم فنرى الاستاذ « مطاع صفدي » في كتابه « الثوري والعربي الثوري » ص ٤١ . يقول :

« لذلك كان للحظة .. الحاضرة المليئة ، والمغامرة الصاعقة المندفعة الاعتبار الاول في نفس الفنان الجاهلي طرفة بن العبد ، وكل هذا يذكرنا في الواقع بالموضوعية

نيتشه الى غوير الى أندريه جيد الى سارتر « غير أن الفكر الحديث يعطي للزمان طابعا دراميا يصوره على أنه فعلية هوجاء تسير معاكسة وارادة الانسان ولذلك كانت الحياة مجرد فرصة علينا أن نغتنمها قبل أن تفلت من يدنا ، كأننا نعتقد أن فرار الحياة مجرد من ايدينا هو الاصل ، واما الفوز بها فهو الشيء النادر، ولهذا عم الاسى والعمية الفكر الحديث كله » .

وبذلك نرى أن فلسفة طرفة بن العبد كانت اللمسات الاولى في تأسيس صرح المذهب الوجودي الحديث الذي اعتنقه كبار الفلاسفة في التاريخ المعاصر .

الحكمة في شعر طرفة بن العبد :

رغم الحياة القصيرة التي عاشها الشاعر طرفة بن العبد فانه يقدم لنا حكما لازالت حتى أيامنا هذه خالدة، وما ذلك الا لانه كان ينظر الى الدنيا بمنظار شيخ مجرب فهو عبقري ملهم رزق كل أسباب المجد ، فنال المجد والعزة والقوة ، فسال الشعر على لسانه بصورة عفوية وبصدق دون تكلف لان الشاعر عاش هذه الاحداث واكتوى بنارها .

فلم يقرأها بكتاب الا كتاب الطبيعة الفسيح ولا في سفر الا سفر الصحراء الفصيح ومن واقعه الفطري وتجربته الشخصية القصيرة الامد ، فنسمع هذه الحكم فنجدها كأنها قيلت في عصرنا الحاضر رغم انقضاء أكثر من ألف وخمسمائة عام على قولها ، لنسمع رأيه في ظلم أعمامه واقربائه له فنرى هذا القول ينطبق على كل زمان ومكان ويشعر قارئه كأن الشاعر عناه وعبر عن نفس قارئه فكم هو مؤلم ومن ظلم القريب لقريبه فهو أشد من ضربة السيف الحاد النصال :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

وقوله :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

فهذا البيت يحتوي على حكمة صحيحة صادقة في كل عصر ومصر فالفرد يعرف سلوكه في الحياة من سلوك قرينه الذي يرافقه ويلازمه لانهما يكونان متحدان في الافكار والآراء ويقتديان ببعضهما ولنسمع حكمته الخالدة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالاخبار من لم تزود

فالايام سجل مطوي يحوي بين سطوره المفاجآت التي نجهلها والتي ستأتينا بوقتها كما سيعلمك بالاخبار انسان لم تكلفه بايصالها اليك ، حكمة قديمة حديثة صادقة لصدق قائلها ، ويروى عن النبي « ص » كان أتراب الخير يتمثل بقول طرفة (يأتيك بالاخبار من لم تزود) .

ويقدم لنا الشاعر رأيه بالاسباب الصغيرة التي تسبب النزاع ومن ثم يكبر النزاع ويصبح حربا ضروسا تسيل له الدماء زمنا طويلا :

قد يبعث الامر القطيع صغيرة
حتى تظل له الدماء تصيب

وقوله يطلب الغيث والمطر لحبيبته :

فسقى ديارك غير مفسدها
صوب الربيع وديمة يهمي

فهو يطلب من الله تعالى أن يهطل الغيث والمطر في ربوع حبيبته لانبات الاعشاب وملء الغدران ولكن دون أن تتضرر هذه المزروعات وتفيض الجداول من كثرة الامطار أي أن تكون هذه السقى نافعة فالشاعر يطلب الغيث والمطر لديار حبيبته على قدر الحاجة .

والخلاصة :

ان حياة هذا الشاعر الجاهلي المفعمة بالاحداث رغم قصرها ومكانته الرفيعة بين قومه وعشيرته وتمتعه بكل الصفات التي تؤهله ليكون فارس قومه وفتاها وتحليه وتمسكه واعتزازه بالاخلاق الاصيلة التي يعتز بها العربي في كل زمان من كرم وشجاعة وبطولة يضاف الى ذلك شاعرية فذة وقادة وعبقرية ملهمة صاغ لنا بها دررا ثمينة تعتبر المبادىء الاولية في المذهب الوجودي المعاصر ، وقدم لنا حكما قيمة رائعة بقيت خالدة على مدى الايام ، وما ذلك الا لصدقها .

رحم الله طرفة بن العبد فقد كان فتى عربيا كريما وشجاعا وشاعرا للشباب وحكيما .

احمد سعيد هواش ـ دمشق

ملامح في الرواية السورية
والناقد سمر روحي الفيصل

بقلم: أحمد دوغان

لقد عرفت الصحافة الادبية في الوطن العربي أسماء لمعت في النقد الادبي – قديمه وحديثه – أمثال محمد النويهي ، وشكري فيصل ، وخلدون الشمعة ، ومحي الدين صبحي ، والربيعي .. وغيرهم من النقاد. ولكننا اليوم مع ناقد ربما غير معروف لدى القارىء الجزائري الا من خلال دراساته النقدية في الصحافة العربية التي تعرف العمق والتحليل فيما يتناول من نصوص زيادة على ايمانه بأن النقد ابداع ، وفي الحقيقة اننا في حاجة الى النقد الموضوعي البناء الذي يعتمد على التطبيق والابداع ، رغم أن قراءة العمل الادبي – تحليلا ونقدا – ليست بالامر السهل ، واكتشاف خلفيات هذا العمل ، والوصول الى بدهيات في الفن ، من هنا لا يمكننا أن نطلق على أي كان لقب ناقد ، فالاسماء أو الصفات كثيرة ، ولابأس من القول (قارىء ،،، متذوق ،، ذواقة) أما أن نقول ناقدا فهذه كلمة نقصدبها ذاك الذي يجسد ذات الفنان أولا ثم ينتقل الى الذات الاخرى التي تتعامل مع ما قدمته ذات الفنان : أي مع الاثر الذي هو مجال بحثه أو دراسته من خلال ما يسمى النقد ، ونحن في عصر الثقافة ، وبتعبير آخر ، نحن أمام ثقافة معاصرة لابد لنا من القراءة ، وعندما تكون القراءة يكون النقد ، وأما ابداء الرأي شفويا فيسمى عند أهل الحرف (لغوا) ولذا فالقراءة المتمعنة الواعية المتبصرة تصل بالقارىء الى معالم او خطوط عريضة – سلبا أو ايجابا – لتصب في الحياة النقدية ، ولهذا تشكو ساحتنا الادبية أو الثقافية من النقاد الا من رحم ربك ،

من هؤلاء الذين يمثلون النقد الواعي ، والرؤيا الابداعية في النقد « سمر روحي الفيصل » وقد صدرت له مجموعة من الاعمال النقدية ، أبرزها كتاب (ملامح في الرواية السورية) . وهذا الكتاب اضافة جديدة الى المكتبة العربية لما فيه من نظرات نقدية تضع المؤلف مع النقاد البارزين .

يقع الكتاب في خمسمائة وست وأربعين صفحة من الحجم الكبير ، صدر في أواخر عام ١٩٧٩ عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، ويتناول مقدمة قصيرة ، وبابين ، وثبت للرواية السورية (١٨٦٥ – ١٩٧٨) .

المقـدمة :

بعد أن قدم الناقد خطته في البحث ، وبين أن ميدان عمله كان من خلال ثلاث وعشرين رواية سورية من أصل أربع وسبعين ظهرت في العقد الاخير (١٩٦٨ – ١٩٧٨) وان هدفه تقديم دراسات تطبيقية بعيدا عن آراء الدارسين وتصريحات الروائيين عن تفسيرات لعملهم الادبي . وأما عن النهج فانه عمل من خلال المنهج التفسيري الا أنه لم يلتزم به حرفيا لقناعته بعدم وجود حدود ضابطة للمناهج النقدية ، ولهذا نراه يستعين بالمنهج الفلسفي ، وبصورة خاصة النظرة الكلية ، كما أنه استعان بالنقد البنيوي للوصول الى فهم النص .

أما من حيث الابداع في النقد ، أو عن الذات الناقدة فقال عنه سمر روحي الفيصل : « كنت أقرأ الرواية مرتين لاحاول اقامة صلة شخصية تذوقية بها ولاعرف صورتها الكلية وجزئياتها الصغيرة ولا أنكر هنا أنني تعاطفت مع الروايات كلها ، وانني حاولت في أثناء تعليل تذوقي الخاص ابراز وجه الرواية المضيء ، وايجاد

مسوغات كافية للاشياء الاخرى ، ومن ثم بدوت منفعلا بها ، معتمدا على خيالي ووجداني في الوصول الى قانونها الخاص ، ولهذا لا أدعي أنني وصلت الى حقائق نهائية بشأنها ، لانه لا توجد حقيقة نهائية في النقد ، وانما هناك تأويل للعمل الروائي ، بمعنى الكشف عن وجه من وجوه الرواية كما هو مبثوث فيها » .

وتعرض الى الفن في الرواية قائلا « وقد شغلتني طويلا قضية الزمن الروائي وحركة القص والحبكة الروائية ، والسرد ، والبنية اللغوية ، والمونولوج الداخلي ، والحوار والتوظيف الفني ، والحيل السينمائية ... » ، بمعنى آخر أي أنه عاش الرواية كفنان روائي ثم كان عمله الابداعي للوصول الى الغاية المنشودة ، تلك هي أهم النقاط التي وردت في المقدمة ، وأعتقد أنها خطوط تساعد الدارسين ليس في نقد الرواية فقط ، وانما في باقي الفنون الادبية .

الباب الاول : (الرواية السورية والمجتمع)

يضم هذا الباب فصلين أولهما يتناول الروايات التي درسها في هذا القسم ، والفصل الثاني يتحدث عن مجتمع الرواية السورية بشقيه الريفي والمدني ، والروايات التي جاء على دراستها في الفصل الاول ثلاث عشرة هي (وردة الصباح) لعادل أبي شنب ، و (أحضان السيدة الجميلة) و (أحزان الرماد) لوليد اخلاصي ، و (طائر الايام العجيبة) لخيري الذهبي ، و (رياح كانون) لفاضل السباعي ، و (أجراس البنفسج الصغيرة) لحسيب كيالي ، و (من يحب الفقر) لعبد العزيز هلال ، و (السنديانة) و (الياقوتي) و (الصخرة) لعبد النبي حجازي ، و (ايندح الطوفان) لنبيل سليمان ، و (ملح الارض) لصلاح دهني ، و (المذنبون) لفارس زرزور .

وكان في عمله النقدي لهذه الروايات منطلقا من الواقع الاجتماعي وأما دراسته فكانت قائمة على التطبيق الفعلي ، اذ يبدأ بتقديم الرواية الى القارىء ، ثم يقوم بتحليلها متبعا أسلوب الحكاية في طرح ما تناولته ، وبعدها يبين المنهج الذي اتخذه الروائي ، وأخيرا يتحدث عن التقنية اللغوية ، ، ومن خلال قراءتي لدراسة الروايات وجدت أن ما ذكره في المقدمة لم يكن كلاما نظريا ، وانما اتطبيق جاء موافقا للخطة التي أراد السير عليها .

وفي الفصل الثاني (مجتمع الروايات السورية) يعطي بادىء ذي بدء لمحة موجزة عما يريد أن يقوم به ، تحت عنوان (حدود البحث) فيبدأ بتعريف المجتمع مبينا أن المجتمع هنا مجتمع الرواية التخييلي الذي تعيشه الشخصيات التي يبدعها الكاتب ، وهو مجتمع له قوانينه الفنية الخاصة . ثم يعتبر أن كل رواية تمثل مجتمعا قائما بنفسه ارتضته ارواية لنفسها وفق قوانينها الفنية ، ثم يقوم بتحليل هذا المجتمع دون النظر الى المجتمع الخارجي ، بل التزام بنص الرواية ، وبعد ذلك تعرض لتحليل المضمون الاجتماعي للرواية على اعتباره جزءا من التحليل الكامل لها ، ثم أكد مدى تعبير الشكل عن المضمون (لان الشكل الفني غاية في حد ذاته ، ولكن من أجل أن يكون وسيلة ناجعة لغاية أخرى هي ابراز المضمون) كما يركز على أن الروايات المدروسة قد انصرفت الى عرض مجتمع الروايات السورية ، ويرى أنه استخدم أثناء التحليل مصطلح الرواية التقليدية ليكون مقابلا لمصطلح تيار الوعي الزماني ، والرواية الجديدة (تيار الوعي المكاني) ويرى أنه في الفترة الاخيرة كان هناك اهتمام بالرواية السورية في الصحافة الادبية والكتب المنهجية ، ثم يقوم بتقديم مجتمعات ريفية متخيلة من خلال ست روايات ، فرواية (وينداح الطوفان) لنبيل سليمان صورت المجتمع الجبلي الساحلي ، و (الصخرة) لعبد النبي حجازي صورت مجتمع الجزيرة شمالي سورية ، و (المذنبون) لفارس زرزور و (ملح الارض) لصلاح دهني صورتا مجتمع المنطقة الجنوبية ، و (السنديانة) و (الياقوتي) صورتا المجتمع الريفي القريب من دمشق .

ثم قدم الناقد سمر روحي الفيصل خمس فقرات نتيجة دراسته للروايات السابقة ، تبدأ ب (تفتت المجتمع الزراعي القديم) نتيجة انصراف مجتمع الروايات عن الزراعة القديمة التي تعتمد على المطر ، وتعرض هذا المجتمع للاقطاع والاستغلال والجهل ، وفقر الاسرة ، وتعدد الزوجات ، والخلافات ، ولكن العلم والعمل عن طريق الجيل الجديد جعلا المجتمع نفسه يعلن الثورة للصالح العام ، ولا ينسى دور الحكومة في توزيع الاراضي على الفلاحين ، ومصارعة القوة المضادة ، وأكد أن القرارات الثورية هي التي يجب أن تبقى ، ثم انتقل الى (الواقع الاجتماعي والسياسي) فتحدث عن المجتمع الريفي قبل التحولات الاشتراكية ، ثم المرحلة الانتقالية ، ومحاولة سيطرة الاقطاع ، وعذاب الفلاحين ، ثم الانتقال الى مرحلة البدايات الاشتراكية ، وصمود الثوريين ونجاحهم وتحدث عن عملية الانتخابات ، وبناء المدارس ، وشق الطرق وصراع الطبقات ، والجمعيات التعاونية ، وفي الفقرة الثالثة تحدث الناقد سمر روحي الفيصل عن (القيم والعلاقات الاجتماعية) في الريف خلال الروايات

السابقة متعرضا لسيطرة الرجل ، وعمل المرأة ، وبالنسبة للشخصيات ، فان الناقد يرى (الرغبة الاساسية للروائيين أن تكون الشخصية الرئيسية أو المحورية في الرواية معادلة للمجتمع) ولاحظ في شخصيات المجتمع الريفي وجود البطل الايجابي العفوي كما جاء في (السنديانة) و (ملح الارض) والبطل السلبي في (الياقوتي) ، وهناك تأكيد على البطولة الجماعية ، وتحول قيادة الرأي من المسنين الى الشباب . وفي الفقرة الخامسة والاخيرة من الرواية الريفية تحدث عن (هجرة الريفي الى المدينة) ويرى أن الروايات الريفية غالبا ما تنتهي بهجرة البطل الريفي الى المدينة طلبا للعلم ، أو العمل ، وهربا من القحط والضغط الاجتماعي أو الاقتصادي ، وهذه الهجرة اما دائمة أو مؤقتة ، على كل حال تعلي هذه الروايات من مكانة الريف حين تطرح الارتباط بالارض حلا لمشكلات المجتمع كلها .

وفي القسم الثاني من هذا الفصل تحدث الناقد عن (الرواية المدنية) ومن خلال تحليله لها يرى الفقر النغم الانساني الاكثر بروزا في الروايات السورية وان هؤلاء الفقراء طيبون يحلمون بحياة زوجية هادئة ، نزاعون الى الحرية ، محافظون على ذواتهم ، وعلى كرامة العمل ، والنقطة الثانية ترصد صورا عديدة للمرأة في المجتمع المدني ، فهي تتجه نحو التحرر من تبعية الرجل وتعمل على دخول ميدان العلم والعمل ، وتسعى للقضاء على العلاقات الاجتماعية القديمة .

و في النقطة الثالثة تحدث عن مشكلات الانسان في مجتمع الرواية المدنية ، التي منها الغربة بمعنى الاغتراب عن المجتمع ، أو الصراع بين الفرد والمجتمع ، والعزلة الكلية عن المجتمع ، والتأقلم مع المناخ الاجتماعي بالنسبة للمثقفين ، والثورة على المجتمع عند اصطدام البطل بنقائص المجتمع ، فهو يثور لتحطيمها ، والثورة الفردية تؤدي الى الثورة الجماعية ، وعلاقة الرجل بالمرأة ، اذ هو يحاكم سلوك المرأة تبعا لعادات مجتمعه القديمة ، ويختتم الفصل بقوله (ان الرواية السورية قد خطت خطوات واسعة نحو تأسيس من يحمل مشكلات المجتمع العربي النابعة من خصوصية وضعه المعاصر) .

الباب الثاني (الرواية السورية والحرب)

يقع هذا الباب في أربعة فصول أولها (الرواية السورية وحرب حزيران) ويقدم تحت هذا العنوان دراسات تطبيقية لخمس روايات هي (قارب الزمن الثقيل) لعبد النبي حجازي ، و (الابتر) لممدوح عدوان ، و (الايام التالية) لنصر شمالي ، و (ثلج الصيف) لنبيل سليمان ، و (ألف ليلة وليلتان) لهاني الراهب ،، وعند قراءتي للتطبيق الذي قام به الناقد وجدت نقاطا عدة عالجتها هذه الروايات أهمها :

١ ـ سبب هزيمة حزيران يعود الى المجتمع .

٢ ـ الحرب كشفت الاخطاء ، محاسبة الذات من الفرد والمجتمع .

٣ ـ اعطاء صورة عن الصراع بين العرب والصهيونية ، والارض بين صاحبها ومغتصبها ، فالصهاينة انتصروا في الحرب ولكنهم لم يستطيعوا قهر اصحابها .

٤ ـ المجتمع العربي بعد الحرب ، والعمل على تحويل الهزيمة الى نصر .

٥ ـ نشأة العمل الفدائي .

٦ ـ تسجيل مشكلات الامة العربية .

٧ ـ التعرض الى علاقة الفرد بالسلطة .

٨ ـ ظهور التناقضات الطبقية عبر جدلية الصراع لاجتماعي .

وما ان انتهى الناقد من دراسة الرواية السورية وحرب حزيران حتى انتقل الى الفصل الثاني الذي يتناول (الرواية السورية وحرب تشرين) ، ويتعرض الى روايتين (دمشق الجميلة) لاحمد يوسف داوود (أزاهير تشرين المدماة) لعبد السلام العجيلي ، مبينا أن (دمشق الجميلة) هي أول رواية سورية تنعكس فيها حرب تشرين ، وأن دمشق هي البيئة المكانية لاحداث الرواية ، في حين أن البيئة الزمانية كانت في الفترة السابقة للحرب مباشرة ، لكنه بعد دراستها وجد (أن حرب تشرين بقيت على هامش الرواية ، اذ لم تستطع الرؤية السابقة جر خيوط السياق الى الحرب) . وأما عن (أزاهير تشرين المدماة) فقد قال عنه الناقد (ان العجيلي روائي واع لما يقوم به ، واع لحبكة روايته ولطريقة السير بها ، ويكفي الرواية والروائي أن يكونا كذلك) ، ويبين أنها تعطي صورة واضحة عن حرب تشرين اذ وضح المكان في المستشفى العسكري ، واللقاء مع الضباط والجنود ، وقد أبرز مواقف كثيرة هي أقرب الى الواقع المعاش من التخيلي في حرب تشرين .

وفي الفصل الثالث يتعرض المؤلف الى (الرواية السورية والحرب اللبنانية) من خلال دراسته لثلاث روايات (كوابيس بيروت) لغادة السمان ، و (بستان الكرز) لقمر كيلاني ، و (الممر) لياسين رفاعية ، ويرى (التصاق غادة السمان بالحرب اللبنانية ، وكتابتها الرواية المذكورة في وقت كانت تعيش فيه

الحرب نفسها ، والمؤلفة لم تغادر بيروت زمن الحرب اللبنانية ، وتبين للناقد أن غادة السمان ترى أن الحرب تعيد النظر في كل شيء ، وان الكوابيس درجة متقدمة من درجات الوعي واليقظة المرهفة) .

وعند حديثه عن (بستان الكرز) لقمر كيلاني يفصل في تقديم الرواية والتحليل والتعبير اللغوي ، ويصل الى القول (ان بستان الكرز رواية مقنعة والاقناع في رأيي أول طريق التغير ، وكانت جميلة ، لان الفن الروائي بارز فيها ، وقد استطاعت المزج والانسجام العضوي بين مستويين من الحياة ، المستوى الشخصي والمستوى الاجتماعي) .

كما أن رواية المر لياسين رفاعية أول انعكاس للحرب اللبنانية في الرواية السورية .

وقد أبرز الناقد مواقف عدة هي الروايات الثلاث ، وفي الواقع لماذا كانت الحرب ... تعبير الشخصيات عن الطائفية ، عن الدم والقنص وأسلوب القتل ، ويتجسد للقارىء الواقع المعاش أيام الحرب التي مازالت الى الآن .

وفي الفصل الرابع تحدث الناقد عن الرواية السورية والحرب ، مارا بأدب الحرب فيما مضى ، ويقدم بعد ذلك مجموعة من الملاحظات تشير الى علاقة الرواية السورية بحرب حزيران ، كناقد استخلصنا بعضها من قبل ونؤكد من جديد على أهمها :

١ ـ تطرح الروايات حلا مجددا لهزيمة حزيران هو العمل الفدائي ، وايمان الجيل الثوري بذلك .

٢ ـ لا يوجد ندب ولا لطم في الروايات لضياع الارض كما كان في الشعر .

٣ ـ تؤكد الروايات الخمس على البطل الريفي بحيث يكون هذا البطل هو الشخصية المحورية في الرواية .

٤ ـ ان حرب حزيران لم تكن حربا بالمعنى المعروف ، وانما أجبر العرب على دخول هذه الحرب دون استعداد .

٥ ـ تكاد قضية فلسطين تغيب تماما من الروايات المذكورة ماعدا رواية (الف ليلة وليلتان) .

٦ ـ تطرح الروايات من خلال مضمونها رؤية فنية محددة لما حدث في حزيران .

وملاحظات الناقد عن الروايات التشرينية هي :

١ ـ تأكيد الروايات ربط حرب تشرين بالخلفية الاجتماعية المؤكدة للنصر .

٢ ـ أكدت حرب تشرين أنها هي الحرب الاولى التي قاتل فيها العرب الاسرائيليين والقضاء على عقدة الخوف من النفوس .

٣ ـ استخدمت الروايات صورا شائعة في حرب تشرين ، كالبطولات الفردية ، والقصف الاسرائيلي لمدينة دمشق ، واشتراك الجيوش العربية في حرب تشرين .

٤ ـ تطرح الروايات تحمل الجيل الجديد أعباء النضال ، والعمل على استمرار العمل الفدائي .

وعند درسته للرواية السورية والحرب اللبنانية بين :

١ ـ ن الروايات المذكورة عنيت بجعل الحرب أزمة على المستوى الشخصي ينعكس من خلاله المستوى الاجتماعي العام .

٢ ـ امتلأت الروايات بصور الحرب التي شكلت حضورا كاملا فيها .

٣ ـ أكدت هذه الروايات على هجاء التركيب الاجتماعي للبنان ما قبل الحرب وعلى أنه يحمل بذور التناقض في الداخل .

التفتت الروايات الثلاث الى قضية الاختلاف الديني ، وأن هناك أقلية تحكم أكثرية .

٥ ـ تناولت الروايات قضية فلسطين والفلسطينيين في الحرب اللبنانية .

٦ ـ ارتفعت في الروايات النسبة المئوية للنغمة الانسانية .

٧ ـ ان الرؤية الفنية للروايات الثلاث واحدة ، وهي استنكار مايجري في لبنان والاستفادة من الحرب في الانتقال الى مجتمع جديد خال من الشوائب السابقة .

وبعد ذلك يرى الناقد أن الرواية السورية قد سجلت اقترابا واضحا من أدب الحرب (وان الحرب فعل طارىء على فعل مقيم ، والفعل المقيم هو السلم ، والفعل الطارىء هو الحرب التي تقطع مجرى السلم) ، وأن الرواية تعرضت بشكل أو بآخر الى خطورة الصراع الدائر في المنطقة ، وأكدت التغير الاجتماعي القادر على نقل الانسان القوال الى نسان فعال ، كما أن دمشق لقيت عناية بالغة في لرواية السورية ، كما لقيت فلسطين اهتماما آخر ، ويؤكد بروز البطل الريفي في الروايات المذكورة وبصورة خاصة في روايات حزيران وتشرين .

وأنهى المؤلف كتاه بثبت للرواية السورية مابين ١٨٦٥ ـ ١٩٧٨ .

لاشك أن الناقد سمر روحي الفيصل في كتابه هذا قد أعطى جهدا ملحوظا واستطاع أن يكون لبنة هامة من حيث المادة التي قدمها ، والصبر الذي يتحلى به الناقد ، حتى لايقع في هوة الغرور ، فينسى حدود البحث وتأخذه شهوة الكلام ، بل انه كان مع البحث ، وعرف قدر نفسه .

عن (صحيفة الشعب الجزائرية العدد ٥٢٣٣)



القصاص

رواية تأليف : عبد الله سعيد جمعان

من مطبوعات نادي الطائف الادبي ـ ١٣٩٩ هـ ـ (٨٩) صفحة من القطع الكبير ـ صمم الغلاف ـ الفنان : حماد الجعيد ـ طبع شركة مكة المكرمة للطباعة والنشر .

دراسة أدبية فكرية نفسية بقلم : العابدة الصغيرة

● ريف ، طبيعة ملونة ، رجال اشداء ، أمانة تعليم ، غدر ، ثأر ، عقل ، ايمان ، حنان حب .. كل هذا تراه بشكل مكثف وخيال ممزوج بالواقع ـ بالقصاص ـ

القصاص : رواية من صميم الريف العربي فيها نكهة حلوة تجعلك تعيش مع ابطالها تشاركهم فرحهم بالمطر والغلال الوفيرة وتكبت أنفاسك وانت تلاحق ثورتهم ضد الغدر وتنبهر من تكاتفهم ووقفتهم يدا واحدة مع المظلوم ، ويدور فكرك مع النقاش العلمي المغلف بالايمان الصحيح الذي يتصدى للجهل والعادات البالية ، تطلقه سيدة متعلمة (فضة) تقنع به الصغير قبل الكبير والمتعنت قبل المتساهل فيهيمن صوتها المتدفق المتزن على الجميع فيرجعون عن موقفهم ويتركون الثأر ويلجأون الى العدالة التي تساندهم وتنال من الغادر وتحكم عليه ذاك الحكم العادل القتل جزاء قتله ظلما وغدرا وعن سابق عزم وتصميم انسانا بريئا يعمل بارضه بجد واخلاص ...

الرواية :

قصة فتاة الريف المتعلمة الواعية انها مثال الابنة والام والمعلمة والعاملة في الارض .. عرفت رسالتها كانسانة متعلمة في بيئة جاهلة وناضلت بكل قواها وعقلها وعواطفها ضد الجهل والعادات السيئة والتقاليد التي تهد كيان الريف .

آمنت بالارض والعمل ونذرت حياتها لتحقيق امنيتها وهي خلاص قريتها من كل أدران التخلف ورواسبه وحققت نجاحا باهرا في هذا المجال لذا اطلق الاهالي (اسمها) فضة على القرية ...

فضه قرية وادعة تحضنها السهول وتغمرها الشمس مطمئنة في الاراضي السعودية :
ورواية القصاص سواء كانت من الخيال أو من الواقع فيها تصوير دقيق ورائع للريف السعودي ذاك الريف المبارك والذي لا يختلف عن أي ريف في أي بلد عربي ولولا اسم الاديب عبد الله سعيد جمعان مؤلف القصاص واسم المطبعة (نادي الطائف الادبي) لظننت وانت تقرأ القصاص انها رواية منتزعة من الريف المصري أو السوري أو العراقي وهذا دليل على وحدة الوطن العربي ووحدة عاداته .

والقصاص رواية تدور احداثها في الريف وفضة بطلتها ابنة موظف بسيط ترك قريته الصغيرة الى الطائف بحكم عمله فالتحقت الطفلة بالمدرسة وتخرجت معلمة وعادت مع ابيها الى قريتها التي عشقتها منذ طفولتها لقد عشقت ارضها وشمسها وعملها واطفالها ونساءها ومنذ وصولها الى تلك القرية اخذت دور المرشد والمنظم والمساعد الى جانب مهنتها الاساسية التعليم ، واعتبرت نفسها مسؤولة عن القرية باكملها ولم تنس انها فلاحة فكانت تحلب البقر والماعز وتجلب الماء على ظهرها من البئر ولما عاتبتها عمتها

ـ انت حضرية يا فضة ومتعلمة مالك ولهذه الاعمال اجابتها فضة .
ـ كيف تقولين ذلك يا عمتي وانا فلاحة مثلكم .
ـ وماذا لو رأتك احدى طالباتك .

ـ العلم لا يمنع ان اعمل وسوف تفتخر الطالبة بمعلمتها عندما تراها تعمل مثلها .. ثم انني من هذه الارض .. ثم تزوجت .

ومن خلال سرد حياة فضة تنساب العواطف والحنان وانتصار العلم بشكل درامي عنيف ، يجعلنا نعيش الحدث وكأننا جزء منه ، « عاشت معه أيام فراقه (وتقصد فضة ابنها) وهي تشعر بنفسها معه في كل ساعات نهاره وليله وذلك من خلال رسائله لها التي كانت ترد عليها بغبطة وسعادة عاشت معه في الجامعة وفي نزهاته وجلساته مع اصدقائه وكان ينتقل معها بين غرف المنزل وفي المدرسة ومع عمتها وصالح ويتمشى معها في الحقول والجبال وكأنما لم يفترقا أبدا .. » هذه خلاصة احدى رسائل فضة لإبنها طارق الذي ذهب الى الجامعة في العاصمة ...

« اود رؤية ابنتي الصغيرة ـ طلب ذلك الشيخ المحكوم بالاعدام ـ واحضرت الطفلة فاحتضنها الى صدره وبكى الاثنان بكاء صامتا ...

وبعد فترة أوسد اصبعيه ذقنها الصغيرة ورفع رأسها اليه وقال بصوت مخنوق ..

ـ هل تحقدين علي لانني قاتل .. قالت الطفلة ..

ـ من يقتلوك ... أنا أحبك ... أنت أبي «وبكى» الرجل الصلد الذي لم يخش حكم الاعدام .. وتقبله دون ان يرف له جفن .. كذلك لم تتحرك به عضلة عندما اطلق النار على شاب بريء زرع ارضه وفرح بها قتله لالشيء الا لانه طلب منه ان تترك مواشيه الارض والزرع .

ذاك الانسان الجبار يبكي كالطفل وهو يحضن طفلته .. ويطلب صفحها وهي الصغيرة ويتساءل هل تنظر اليه كمجرم والطفلة لم تعترف باجرامه انه اباها وهي تحبه .. سوف ادعو الله ان يغفر لك وينقذك من هذا السجن .

تركته الطفلة والدمع يغسل وجهه ووجهها وسحبه الجند الى الساحة لاعدامه ، والابنة هل خافت من الجند ؟ لا ... ففي اللحظة التي صرخ فيها الاب مسترحما ياعم اعتقني لوجه الله ..

(طريقة الاعدام أن يقتل أقرب انسان الى القتيل القاتل بالساحة العامة بعد حكم المحكمة .. ولا أدري أن كانت هذه الطريقة متبعة في السعودية أم من خيال الكاتب) .

لم يلتفت الشيخ وكاد ان يضغط الزناد عندما اخترقت جموع المشاهدين وصف الجنود طفلة في عامها السابع واتجهت بسرعة البرق الى أبيها ورمت بنفسها في حضنه وهي تصرخ :

« ـ أبي ... أبي .. لقد صليت ودعوت لك ربي » وحاولوا انتزاعها من احضانه ولكنها كانت متشبثة به بكل قوتها .. وكأنها تقول : أريد أن أبقى معه .. اتركوه انه ابي .. اقتلوني معه .. انه ابي ولم يذنب .. لقد غفر الله له .. ارجوكم انه ابي وانا احبه ...

وكانت دموعها وصوتها ونشيج والدها لوحة مؤثرة جعلت الاب (والد القتيل) يرمي بندقيته ويقول سامحك الله ...

وهكذا نرى انتصار العلم . والفكر العلمي الصحيح يلعب دورا هاما في الرواية وانه الغاية من الرواية ...

فالثأر معروف وجل ما نرى أو نقرأ ونعرف يدور حول تصوير هذا التقليد الذي سيسيطر على العقل القروي في بلادنا ، بشكل يجعلك تنفر منه ، ولكن رواية القصاص لجأت الى اسلوب اخر اسلوب ايجابي فعال..

لقد قتل صالح غدرا وهب اهل القرية للثأر له وبالطبع الاب أو الاخ هو يتولى عملية الثأر ... الاخ متعلم ولا يؤمن بهذا التقليد ولكن ما موقفه تجاه أهل القرية الذين يصفونه بالجبن ان لم يأخذ بالثأر ...

ـاخرج يا محمد للثأر ... انت شقيق القاتل .. اليست فيك نخوة وشجاعة ..

ـ انا لست جبانا ... اني قادر على ان اقتل قاتل اخي .. » ودخل يبحث عن سلاحه .. ركضت اليه قريبته فضة السيدة المتعلمة صاحبة الرسالة الواعية لرسالتها ...

ـ محمد ارجوك القضاء يقتص لك من القاتل لا تهدر شبابك ...

ـ ابقي في البيت ودم اخي لم يجف ... وهل يفهم هؤلاء القوم غير شريعة الثأر ، وفرضنا اني اطعتك ما الذي يرفع رأسي بعد اليوم بين قومي ... انظري القرية كلها امام الباب تنتظرني لا اني لست جبانا وخرج بسلاحه وقد انتقلت اليه عدوى الثأر والثورة ...

وهنا يتجلى موقف العلم وانتصاره الذي اراده الكاتب ومهد له بشكل عفوي فجاء طبيعيا لائقا ...

لحقت فضة بابن عمتها اخ القتيل وصاحت مازجة الحب بالعلم والحنان بالمنطق ..

« (١) ايها الشجعان يا ابناء أمتي وقبيلتي ، يالحمي ودمي ، يا اهلي وعشيرتي ... (والقوم بهياج عنيف) انصتوا الي ، وقد تحولت الى شخص آخر .. اسمعوا قال الرسول (ص) خيركم من تمالك نفسه عند الغضب كما قال اياكم والغضب ، ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من ملك نفسه عند الغضب » ..

اجابها صوت :

ـ ادخلي الدار واعجني الدقيق .. فصاحت .

ـ ياربعي ياجماعتي ويا اهلي .. ليس عيبا ان أبدي لكم الرأي والمشورة وان خديجة وعائشة زوجات الرسول (ص) كان يستشيرهن رسول الله ويأخذ برأيهن .

نصحت القول فاردفت ليست بهذه الطريقة يعالج الامر ، اذا نشب بينكم وبين القوم عراك وسقط منكم ومنهم رجال وسفكت دماء ، فهل ينتهي الامر ... وهناك الحكومة ، هل نسيتم ؟ سوف يسجن منكم من بقي حيا وربما يقص به وتكون فتنة تشمل الجميع وتدوم مادام حي منا .

ـ اذا ماهو الحل في رأيك ؟ هل نترك دم صالح فهو ابن عمتي ومن لحمي ودمي ، وانا أول من يطالب بدمه ولكني اقول فلنترك الامر للحكومة .. فقد قال سبحانه وتعالى « بسم الله الرحمن الرحيم ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه لعنه وأعد له عذابا عظيما يا أولي الالباب لعلكم تتقون .. » صدق الله العظيم .

فكبر القوم وانصرفوا وقبضت السلطة على القاتل وحاكمته وحكمته كما مر معنا ..

وهكذا حقن العلم الدماء والغيت من ذاك اليوم عادة الثأر من هذه القرية وباتت ترضخ لحكم العدالة ...

وانتصر العقل وانتصر العلم على لسان فضه وسلوكها ورجاحة تفكيرها ...

واستطاع الكاتب ان يبرز اجابيات كثيرة في هذه الرواية وان يتقبلها الناس عن رضا . والقصاص من الاعمال الادبية القليلة التي تبرز دور المرأة ومكانتها الاجتماعية والدينية وهذا طبيعي من مجتمع يؤمن بالدين ويطبقه بكل امانة ...

• العابدة الصغيرة

(١) القصاص ص ٥١

• أدب الرحلات •

ابتدأ « أدب الرحلات » يشق طريقه الملموس في الانتاج الادبي السعودي ، فقد صدر أخيرا من نادي الرياض الادبي كتاب « ذكريات باريس » للاستاذ عبد الكريم الجهيمان وقدم له يونس بحري والكتاب عبارة عن مجموعة ذكريات للمؤلف .

• ندوة تاريخ عند العرب

اصدر معهد التراث العلمي في جامعة حلب كتابا عن وقائع الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب.. التي ساهم فيها ٦٥ عالما وباحثا من مختلف أنحاء العالم ..

تضمن الكتاب التعريف بالمساهمة الفعالة التي قدمها العرب للحضارة الانسانية في العلوم والطب والتكنولوجيا واهمية هذه المساهمة .

• أوزان الشعر الحر

صدر في القاهرة كتاب جديد بعنوان « أوزان الشعر الحر وقوافيه » للدكتور محمود علي السمان .. يتحدث عن علم عروض الشعر الحر .. وعن قوافيه.. وذلك من خلال تحليل ودراسة النتاج الشعري الحديث ..

• نحو تربية اسلامية •

للعلامة الاستاذ أحمد محمد جمال

• في جدة ـ عن ادارة النشر في تهامة ـ وضمن سلسلتها الدورية المعروفة بـ (الكتاب العربي السعودي) صدر للعلامة الاستاذ أحمد محمد جمال ـ عضو هيئة التدريس في جامعة الملك عبد العزيز ـ الكتاب الجديد عنوانه ـ نحو تربية اسلامية ـ والكتاب عبارة عن دراسة علمية قيمة في التربية الاسلامية بناها المؤلف على أربعة فصول تسبقها مقدمتان . الاولى للكاتب حول خطته التي انتهجها في الكتاب والثانية بقلم الدكتور محمد عبد الله الفامدي الذي عرف بالكتاب وبالمؤلف الذي خدم الاسلام فكرا وعملا يقع الكتاب بـ (١٣٠) صفحة من الحجم الكبير .

* * *

رسائل الأصدقاء

الاخ الشاعر المبدع الاستاذ اسماعيل عامود

بعض الشعراء تجد « بيت القصيد » عندهم في أواسط القصيدة أو في خاتمتها . أما أنت فالشعر عندك يبدأ من العنوان . فكل عناوينك شعر — كنت اعرف ذلك من قبل ، وزدت اقتناعا به عندما طالعت مجموعتك الاخيرة : « السفر في الاتجاه المعاكس . » فابتداء من عنوان المجموعة ، حتى عناوين القصائد المختلفة : « التذكر والجدران المنهوكة » ، « أسافر في فجر الرماد » أو « وجع الايام الاتية » ، أو « اسرار في ليل بطيء النجوم » وغيرها ، نجد الشعر متوثبا ، متجسدا .

انت تعرف رأيي في شكل الشعر ، فأنا لست متعصبا لشكل دون اخر ، على شرط واحد وحيد ، وهو أن يتصف الشكل الذي تخرج به القصيدة بموسيقى معينة ، ومن مجموعتك اقتبس مؤيدات لرأيي . خذ مثلا قصيدتك الاولى : « فوق رصيف معاكس » ،

صفر القطار
— او كاد يتلفني القطار
وانا رصيف للدموع الساقطات

على الديار

امش معي من هذا المطلع الرائع ، عبر هذه الصفات (النعوت) ، التي تحسن استخدامها اكثر من أي شاعر اخر لجلاء الصورة ، وبلورتها في تصاعد لولبي ممتاز ، واصعد معي حتى قصيدة « العبور في طقس الحبيبة — الوطن » حتى نصل الى المقطع الاجمل تحت هذا العنوان الصغير (وهذه اغنيتي .. ادخل بها طقس الحبيبة — الوطن في النشرات) ثم اقرأ :

دخلت طقسك في ومض السحاب ندى
أهادن الريح في سيري وانتشر
وهاجس الشعر في قلبي يحرضني
وخاطف البرق في الشريان يستعر

وتابع الصعود ، فالقمة ماتزال بعيدة المنال ، حتى تبلغها في :

أراوغ النجم كي ياتي فاغرسه
على الضفيرة ميناء لمن قهروا

واذا انت وأنا — وكل قارىء متذوق — في « حالة شعرية » تشبه « حالة الفناء » عند الصوفيين . واذا انت تثبت أنك لست من الفئة التي تعادي الوزن والقافية عجزا أو فقر مادة لغوية او ابداعية ، بل أنت قادر على سلوك الطريق التي تريد ، واذا حدت عن طريق الوزن والقافية فلاسباب تؤمن أنها جمالية نابعة من صميم الموهبة الشعرية .

وانت متعاطف مع المقهورين ، شاعر بألم الجياع والمتسكعين ، في نفسك أصداء لكل ما في دروب الحياة من بشر ، وحيوان ، ونبات وجماد :

« آه ، ياقافلة الايام المحملة بالتعب الانساني
الطافح بالاحلام المزعجة ! ... »

أو :

« اينها المرأة التي عشقتها قبل الولادة
— في الحافلات وعربات النقل الجماعية
فقدت هويتي الشخصية — واتزاني
وشيئا فشيئا تزايد في شراييني الهيجان
كصاعقة سقطت من مدارها المفقود
ايه ، ايها الجمهور المتراص أو المتداخل فوق
الارصفة الدبقة ... »

وانت — حتى في توظيف الاغاني الشعبية لخدمة غرضك التعبيري عن مكنونات صدرك — تبرهن على أن الشعر أوسع افقا من كل مانعرفه عنه حتى الان .

انها لمتعة عميقة ذات آفاق غير محدودة ، ان يرافقك القارىء في سفرك في الاتجاه المعاكس ، وكم كنت أتمنى — لانك تعرف منزلتك في نفسي — أن تجتنب تكرار بعض الالفاظ مثل « المقهور » و « المدار » — ولعلي أجدر بأن أتمنى ذلك لنفسي ايضا — ولكن هذه الهنات البسيطة لا تؤثر شيئا في مجموعتك ، وهي من المجموعات النوادر التي ينتهي القارىء منها وفي نفسه رغبة شديدة في الرجوع اليها — وهذا حسبها .

السويداء — سعيد ابو الحسن

الى الشاعر سليمان عواد ـ دمشق

ها انت كعهدي بك وحيد ومتفرد حتى في المجموعة الادبية للعام ١٩٨٠ التي أصدرها اتحاد كتاب رومانيا. تحتل مجالا لا بأس به وقد وسع ثلاث قصائد من شعرك المنثور ولقد كان اخلاصك، وصدقك في الموقف بعض سماتك التي تعرف بها بين أترابك . وكان وفاؤك للصداقة العربية الرومانية بلا حدود . فقد أغنيت المكتبة الشعرية بمختارات من الشعر الروماني، قديمه وحديثه، ، ولقد قرأت آخر ما أصدرت « قصائد الضياء » للشاعر الروماني المعاصر « لوتشيان بلاغا » معربة ببراعتك وكم هي صعبة ترجمة الشعر، فقد يخسر كثيرا من روحه عندما ينقل من لغة الى أخرى، وقد اعترفت بهذه الصعوبة لما فيها من أمانة « فترجمة الشعر عملية أخلاقية، من حيث التزام جانب الدقة والجودة والامانة، والغوص الى أغوار الشاعر المترجم (بفتح الجيم)، والتوغل في خفايا روحه، وآفاقه الفكرية وعالمه الابداعي » .

ان نقل الشعر من لغة الى أخرى عملية أخلاقية فعلا فكيف وقد تم نقله من لغة الى أخرى ومن ثم الى العربية . ان الاسلوب الشعري في اللغة الفرنسية يختلف عنه في العربية وهو حتما مغاير لما في الرومانية، ومن هنا كان قول الناقد أسعد رزوق حكيما « ان ترجمة الشعر فيها خيانة للاصل » ولقد سهرت ليلتي، الى عطاء الشاعر الروماني « بلاغا » المفكر والفيلسوف . وتزودت من كل مجموعاته الشعرية التي أصدرها حتى وفاته . ولقد لمست أسلوبك الشاعري، وأنى يختفي وأنت الشاعر المترهب في هيكل الشعر تترجم لذلك الشاعر المتمرد على الكون، وعهدي بك عصفورا لا يركن الى أي فناء أو غصن .

« في بحر من الحماسة والاماني العمياء داخل نفسي
اسجد أمام ضيائك أيتها النجوم
ومشاعل عبادة تلتهب في عيني كما تلتهب في أواني القربان
الارتعاشات التي تأتي من عليائك تعانق قلبي بشفاه

باردة من الجمد ومتحجرا أطلب منك :

نحو أية عوالم تقودين نفسك، ونحو أية هاوية ..؟
تائها أشعر بنفسي الان كما لو أنني روح مشمسة

أحيي اخلاصك ودأبك على الوفاء في زمن قل فيه . وسقطت هاتيك القيم التي ورثناها عن مجتمع الشعر والفروسية والايمان وحسبك أن تبرهن للآخرين أن الوفاء كان سوف يبقى هلال الحياة الاجتماعية الانسانية . ومن بلدتي الظامئة الى المحبة والوفاء والحنين أشد على يديك وأنت تجهد نفسك من أجل طهر يرعى بكرك الوحيد لمستقبل باسم يساهم في نزع الشوك من طرق الناس .

سلمية ـ عبد الكريم دندي

الصديق الشاعر مصطفى النجار

تحية الحب والاعزاز

لقد قال القبس الاخضر كل شيء . ولم يبق لي شيئا يمكن أن أقوله . واذا كانت القراءة الاولى في أي عمل شعري لا يمكن أن تعطي رؤية نقدية جادة عن هذا العمل .. فان ديوانا مثل ديوانك ...

(ماذا يقول القبس الاخضر) والذي سعدت به بكل ما يحمل من عطاء على المستويين : الشكلي والمضموني يضعني بدءا من حصار القراءة الثالثة لا الثانية فحسب .. وأعدك .. أنه سيكون زميلي في رحلة السفر الاسبوعي الى صعيد مصر، مقر عملي الجامعي وسأضع منه نماذج أمام طلابي في الجامعة .. لنقرأها معا، وأرجو أن أعود اليك بمردود هذه اللقاءات حول ديوانك .

لك الحب يا مصطفى . ولك كل الشكر .. ان ذكرتني فأهديتني ديوانك .. وآمل أن يصلك ديوان صغير لي صدر أخيرا في القاهرة تحت عنوان (أسألكم عن معنى الاشياء) وان كان القارىء السوري بعيد عهد به لان كل قصائده تقريبا نشرت في مجلة المعرفة السورية .

مرة أخرى أعدك بقراءة ديوانك قراءة مستأنية وبتحديد موقفي النقدي منه .. ولك أن تثق ابتداء بأن الحب في كتاباتي يقهر كل ما عداه ...

ودائما أقرأ لك .. وأستمتع برسائلك وسلام الله عليك ..

القاهرة ـ الدكتور محمد أحمد العزب

أصل الشعر والصدق

« مهداة الى الشاعر الاستاذ
مدحة عكاش صاحب ديوان .. ياليل »

شعر : ابراهيم عبد الوهاب اليوسف

لملمت أشعارا وقافية — من حانة الاشعار والادب
فيها لـ«مدحة» .. أحرف سكبت — في دمعة سقطت من الطرب
فيها عتاب سال من قلم — لا يفقد الاحباب بالعتب

* * *

يا ليل كم من مرة شربت — أشعارك الجلى من اللهب
كم بسمة قد شابها ألم — أو زفرة عانت ولم تغب
أنت الرسول لقلب عاشقتي — فيك المنى .. بل حبة العنب
ياليل خبىء فرحتي حلما — لا تغلق الابواب في طلبي
يا ليل ان الصدق يظلمني — لم أجن من صدقي سوى تعبي
ما بال «مدحة» ياترى ـخبرـ؟ — والصدق في « ياليل » كالشهب
لا يكره المعطاء غير فتى — قد ذوب الالبان بالحطب

* * *

النجل منذ الدهر منهمك — في قصة الآباء والنسب
ياليل أصل الشعر أعرفه — ان تسال الاشعار عن نسب

قامشلي : ابراهيم عبد الوهاب اليوسف

أخبار ثقافية

كتاب الابداع الفني

في الروايـة

اسم هذا الكتاب أساسا هو « الاسس النفسية للابداع الفني في الروايـة » وهو من تأليف الدكتور مصري عبد الحميد حنورة ، وقدم له الدكتور مصطفى سويف استاذ ورئيس قسم علم النفس بجامعة القاهرة ..

ويحدد الدكتور مصطفى سويف في تقديمه للبحث الخطوط العريضة التي تحكمه ... يقول : .. بحث علمي تتوفر له المقومات المنهجية التي تضمن له الدقة والموضوعية ، وهو بحث في مجال العلوم النفسية حيث الدقة والموضوعية لاتزال تقوم امامها صعوبات منها ما هو طبيعي ومنها ما هو مفتعل .

والواقع ان هـذا البحث ينتظم في سلسـلة من البحوث النفسية داخل اطار مشروع علمي كبير يدور حول الدراسة النفسية الشاملة لظاهرة الابداع في سلوك البشر ، ويقوم على انجاز خطوات هذا المشروع الكبير فريق من العلماء الشبان يعملون معا في ظل معمل علم النفس بجامعة القاهرة ..

واذا أردنا أن نحدد في جملة واحدة الموضوع الذي يدور حوله هذا الكتاب كله فاننـا يمكن أن نقول ان السؤال الرئيسي الذي يتصدى هذا الكتاب للاجابة عليه هو : كيف يقوم الكاتب الروائي بابداع رواية ؟.. أو بعبارة أخرى : كيف تتم عملية الابداع على نحـو ما يمارسها كاتب الرواية ؟

ولكي يصل الدكتور مصري عبد الحميد حنورة الى اجابة عن هذا السؤال فقد لجأ الى مجموعة كبيرة من كتاب الرواية العرب وطبق عليهم أدواته التي من شأنها أن تضمن لـه الحصول على البيانات الدقيقـة ليجري عليهـا تحليلاته الاحصائية ويستخلص منهـا استنتاجاته وهكذا فاذا قمنا باستعراض سريع فاننا نرى بين صفحات الكتاب عرضا مفصلا للخطوات التي اتبعها الدكتور المؤلف في حصر مجموعة الكتاب التي بحث الظاهرة لديها ، وللاحتياجات المنهجية التي أدخلها في اعتباره حتى يضمن الحياد العلمي لعمله .. وكذلك فاننا نرى مناقشة تفصيلية للادوات واجراءات تطبيقها وتحليلهـا .

– الباب الاول وقد عرض فيه المؤلف للاطار النظري لهذه الدراسة

– والباب الثـاني يتضمن عرضا للمنهج الـذي استخدم فيه المؤلف هذه الدراسة .

– أما الباب الثالث فانه يتضمن عرضا للنتائج ويقع في فصلين .

ومن هنا فاننا نجد أن هذا الكتاب هو كتاب شامل تماما لموضوعه ، وهو يعطي القارىء فكرة واضحـة للاجابة عن ذلك السؤال الحائر الذي يدور حول عملية الابداع الفني سواء في الرواية أو في القصة أو المسرح وأن نظرة سريعة لدفتي هـذا الكتاب ترينا بوضوح ذلك الجهد العظيم الذي بذله الدكتور مصري عبد الحميد حنورة .

وبعد فان هذا الكتاب هو اثراء كبير للمكتبة العربية ..

أحمد يوسف داوود

● « مأساة مالكوهو » عنوان المسرحية الاخيرة التي تصدر خلال الايام القليلة القادمة ، عن اتحاد الكتاب العرب للشاعر والناقد أحمد يوسف داوود .

● اغنيـة الميلاد ●

ظهرت مؤخرا للكاتب الامريكي المشهور نورمـان ميلر رواية جديدة أثارت كثيرا من اللغط كما كانت سببا في قيام ضجة كبيرة حولها والرواية اسمها « أغنية الميلاد » وهي تدور حول شـاب قضى ١٨ سـنة في السجون الامريكية بتهمة قتل رجلين وقد تسبب ايضا في انتحار صديقته .. وقد أثارت هذه القضية في حينها الامريكيين وتابعتهـا الصحف والمجلات والتلفزيون وأصبحت على كل لسان الى أن انتهت بموت هـذا الشاب تحت يد من يسميهم ميلر بالجلادين ..

كتب ميلر هذه الرواية عن هذه القضية وقد استغرقت كتابة الرواية وقتا طويلا اذ أن المؤلف رجع خلال كتابته للرواية الى معظم ما كتبته الصحافة عن هذا الشاب بالاضافة الى التقارير السرية ورسائل البطل الى نفسه والى الآخرين وتقع الرواية في حوالي ٩٠٠ صفحة ..

لقد نسى الامريكيون هذه القضية بعد مضي عدد من السنوات عليها . الا أن رواية ميلر أعادتها من جديد واصبحت ثانية قضية مثيرة تناقشها الصحف والمجلات وقد أجرت صحف ومجلات كثيرة لقاءات متكررة للحديث عن هذه القضية وعن كيفية كتابة رواية عنها وعن ادب ميلر عموما .. ان ميلر مع التزامه بموقف معين تجاه الحياة فانه يبحث دوما عن المثير في هذه الحياة عبر مواقف معينة وهكذا يميل ادبه بصورة عامة صوب ما يسمى بالادب الوثائقي .

ولد نورمان ميلر عام ١٩٢٤ وعمل في مجالات عديدة الى أن اتجه الى كتابة الرواية ومن اشهر أعماله رواية « العشرة والموتى » – « جيوش الليل » – « ميامي وحصار شيكاغو » وفي حديث أدلى به مؤخرا لاحدى المجلات الادبية الامريكية يقول ميلر :

ان أهمية الرواية تأتي عندي من كونها المكان الملائم لطرح كل شيء ، الافكار الفلسفية ، المغامرات .. الخ بالنسبة لي لا شيء يفوق الروايات الجميلة .. أنا أحب كثيرا فكرة الرواية اولا وعندي ايضا أن الرواية تتفوق على الحقيقة أعني أن هناك أشياء جميلة لا تتجسد الا في الرواية كما تدري أنه حين تقرأ لمارسيل بروست أو سومرست موم او ستاندال أو جويس أو أي علامة من عمالقة الرواية فاننا نتساءل من استطاع منهم أن يجسد كل شيء . يمثل الخلق للبشرية .. أو أي شيء شبيه بهذا أن التحدي الكبير للروائي هو في كيفية خلق الشخصية والتي اعتقد أن تكون متكاملة متناسقة دقيقة .

● أحدث كتاب في فرنسا ●

أحدث كتاب ظهر مؤخرا في الاسواق الفرنسية من تأليف الكاتب جان جرونية هو بروتريه لجان جيونو. يتكلم المؤلف فيه عن صديقه جان جيونو الذي تعرف عليه في عام ١٩٣٨ . ووصفه بأنه رجل معقد ولكنه يمتاز بشاعرية مرهفة .

والمعروف أن جان جيونو كاتب فرنسي ولد عام ١٨٩٥ وتوفي عام ١٩٧٠ أهم مؤلفاته رواية الحصاد والمحبون لا يخسرون ابدا . وأخيرا رواية « الفل » وقد قام جيونو بترجمة بعض الروايات الى الفرنسية أهمها رواية موبي ديك .

● من أخبار الادب والفن ●

● استاذنا الكبير عبد العزيز الرفاعي انتقلت ندوته من الرياض الى الطائف .. الندوة انتقلت الى دار ثقيف للتأليف والنشر ..

● الرسام الفرنسي « جورج ماثيو » عرض مؤخرا في منزله في باريس أحدث لوحاته التي قال عنها أنها تعبر عن الحياة الثقافية حاليا في فرنسا .. وانهالت العروض على ماثيو لشراء لوحته غير أنه لم يقرر بعد بيعها .

ومن أقوال ماثيو المأثورة .. اننا ينبغي أن نعيش الثقافة كتعبير عن الحياة ومما يذكر أن النقاد الفرنسيين يضعون ماثيو على قدم المساواة مع صديقه الرسام سلفادور دالي ..

● « مدارس الادب في العهد السعودي » هو عنوان محاضرة الاستاذ عبد السلام الساسي ضمن الموسم الثقافي لنادي الطائف الادبي ، وقد كانت المحاضرة حافلة بالنقاش واشترك فيها مجموعة كبيرة من الادباء والمفكرين .

● اشتركت فرقة المسرح الطليعي بالمنطقة الغربية في مهرجان الفنون المسرحية بالرياض بمسرحية « طريق السلامة » التي سبق أن قدمتها على مسرح قاعة المحاضرات ، وقد وجدت المسرحية تجاوبا شديدا من جمهور الرياض كما هو الحال في جدة .

● دراسات ضد الواقعية

الناقد محي الدين صبحي اصدر كتابا جديدا بعنوان « دراسات ضد الواقعية في الادب العربي » متضمنا الفصول التالية :

أزمة الواقعية في الادب العربي – سيزيف العربي يمشي على محيط الدائرة – في المضمون القومي والطبقي لفكرنا الحديث – الحداثة ضد الحداثة – ماذا تعني المشكلة عند حسين مروة – الحكيم على سرير بروكروست قصيدتان وقضية [*]

الكتاب يعلن نهاية مرحلة الادب الواقعي ويدعو الى بداية جديدة .. ويقوم على فكرة أن الادب بناء لفظي يقدم رؤيا وان من وظيفة النقد الكشف عن تماسك البناء واتساق الرؤيا .. لذلك من الواجب الافساح للنقد بمعناه الكلاسيكي لان يستعيد مكانته الادبية ..

● مسرحية فلسطينية جديدة

● صدرت في تونس مسرحية بعنوان « المستحيل » بقلم ممثل منظمة التحرير هناك حكم بلعاوي .. وهي باللغة العربية الفصحى ولكنها تتضمن فقرات باللهجة الفلسطينية وأزجالا وأغاني شعبية فلسطينية ..

تعرض المسرحية مسيرة النضال الفلسطيني .. من مرحلة التشرد .. الى مرحلة الكهوف .. ثم المخيمات .. وصولا الى مرحلة الفداء .. التي من خلال جراحها ستنطلق الغضبة الكبيرة ..

● عن الاستشراق :

بعنوان « حاشية الاستشراق المعاصر » صدر كتاب جديد للدكتور نهاد الموسى الاستاذ المساعد بالجامعة الاردنية .. يتناول بالتأمل والتحليل ظاهرة الاستشراق وما أدته من أدوار في التعامل مع تراثنا العربي والاسلامي ..

● الروائي العربي المصري عبد الحكيم قاسم صدرت له رواية جديدة بعنوان « محاولة للخروج » كان قد نشرها مسلسلة في مجلة « ٢٣ يوليو » التي كانت تصدر في لندن .

الرواية تحكي عن شاب مصري مثقف فقير يعمل في ارشاد السياح يحب فتاة سويسرية جاءت في فوج سياحي وراح يطلعها على الحياة في قريته ووطنه .. ومن خلال علاقتهما تتضح انماط التفكير المختلفة ..

ما بين الشرق والغرب والفقر والغنى .. والتخلف المادي والتقدم .. كما تتضح الاحلام السياسية والعاطفية للانسان العربي في مواجهة العصر ..

● حضارة القرية اللبنانية

الكاتب اللبناني الدكتور انيس فريحة اصدر مؤخرا كتابا بعنوان « القرية اللبنانية ، حضارة في طريق الزوال » .. وهو دراسة مستفيضة تتناول جوانب الحياة في الريف اللبناني ، والعادات والقيم والفضائل والتي بدات تضيع نتيجة لغزو قيم المدينة للريف .. ونتيجة لاستمرار مأساة الحرب الاهلية في لبنان ..

● الشاعر العربي الكويتي علي السبتي أصدر مجموعة شعرية جديدة بعنوان « أشعار في الهواء الطلق » متضمنة ثماني وعشرين مقطوعة من الشعر التقليدي الحديث ..

أهدى الشاعر مجموعته الى شاعر الكويت الراحل فهد العسكر الذي رثاه ايضا باحدى قصائد الديوان .
ويقول في قصيدة « أشعار في الهواء الطلق » :

« لو تنصتين ...
لسمعت مني كل شيء تبتغين ..
وعرفت اني ذلك الرجل الذي به تفخرين ..
شفتي التي تتهيبين
انقى من العطر الذي تتعطرين
ما راقصت الا جباه المتعبين
وحروفي الخضراء ما طارت لغير الغاضبين
فأنا بكل قصيدة أشتاق ..
أختصر السنين .. » .

هذه المجموعة هي الثانية للشاعر علي السبتي بعد ديوانه الاول « بيت من نجوم الصيف » الذي صدر عام ١٩٦٩ .

مجلة « الفكر » التونسية

تحتفل بمرور خمس وعشرين سنة على تأسيسها

● الزميلة ، مجلة « الفكر » التونسية الغراء احتفلت يوم الجمعة العاشر من شهر اكتوبر — تشرين الاول — ١٩٨٠ ، الاول من شهر ذي الحجة ١٤٠٠ هـ بمرور « ٢٥ » عاما على تأسيسها وذلك في قصر المؤتمرات في مدينة تونس .. وقد التقى في هذا الاحتفال البهيج أهل الثقافة من تونس الشقيقة ومن البلاد العربية ، واستمعوا الى ثلة من الادباء والكتاب العرب الذين تباروا على منصة الخطابة لتحليل هذه الظاهرة التي تمثلت في استمرار مجلة ثقافية تصدر في تونس العربية طوال هذه المدة دون انقطاع .

وقد أصدرت ادارة المجلة — بهذه المناسبة — عددا خاصا (العدد الثاني — نوفمبر ١٩٨٠ — السنة ٢٦ للمجلة) بـ (١٤٣) صفحة ضم جميع المقالات والقصائد والكلمات التي قيلت في الاحتفال مع تغطية اخباره .

— واسرة دار الثقافة في دمشق بمجلتيها « الاسبوعية والشهرية » تهنىء معالي الزميل الاستاذ « محمد مزالي » مؤسس ومدير مجلة « الفكر » بهذه المناسبة الرائعة ، كما تهنىء الاستاذ « البشير بن سلامة » رئيس التحرير ، مبتهلة الى الله العلي القدير بدوام استمرار « الفكر » وان يسدد خطاها لخدمة الثقافة العربية داعية لصاحبها وهيئة تحريرها بالتوفيق والنجاح والسعادة .